الفصل الثالث

في الولايات المتحدة

مواجهة فكرية أولى

بعد أن تخرجت من الجامعة، حصلت على بعثة للذهاب إلى إنجلترا. وتصادف أن حضر إلى مصر البروفسير إيان جاك Ian Jack، وكان أستاذًا للأدب الرومانتيكي الإنجليزي في جامعة كمبردج وصاحب شهرة عالمية. وطلب مني أساتذتي أن أعطيه بعض أبحاثي للماجستير، فقدمت له دراسة مطولة ذات طابع شامل بعنوان «الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية : دراسة نقدية». وكانت دراسة طموحة للغاية، تحاول أن تغطي تاريخ الأفكار وعلاقته بتاريخ الحركات الأدبية، وتلك النقطة المهمة في تاريخ الغرب الفكري في نهاية القرن الثامن عشر والانتقال من عصر العقل والكلاسيكية إلى عصر الوجدان والخيال والرومانسية (وتناول لحظة الانتقال هذه هو في واقع الأمر تناول لمشكلة الموضوعية والذاتية، أي نموذجين إدراكيين متعارضين). ولا تزال عندي نسخة من هذه الدراسة، وعندما أقرؤها أجد أنها لا بأس بها على الإطلاق بالنسبة لطالب حصل على ليسانس الأدب الإنجليزي لتوه.

قرأ البروفسير جاك البحث، ثم ذهبت إلى مقابلته فسألني ما مطلع قصيدة إندميون Endymion لجون كيتس John Keats، فدُهشت من السؤال ولكني لحسن حظي كنت أعرف الإجابة. ثم سألني سؤالاً آخر، هذه المرة عن قافية المقطوعة السبنسرية Spenserian stanza، فأجبته. وحينما سألني السؤال الثالث عن عدد أقسام قصيدة «الملاح القديم The Ancient Mariner» لصمويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge أجبته، ثم سألته: لماذا تسأل مثل هذه الأسئلة التفصيلية المعلوماتية التي لا

www.scantopdf.eu

تتطلب الإجابة عنها ذكاءً أو إعمالاً للعقل أو للخيال ؟ فقال إنه لاحَظ أنني أميل للتجريد والتعميم، ولذا فإنه كان يتصور أنني لا أعرف شيئًا عن نسيج الأعمال الأدبية، ولا أجيد التعامل معها في خصوصيتها كأعمال أدبية. كان ردي عليه أنني لا أتعامل مع العموميات وحسب، وإنما أتعامل مع العام في علاقته مع الخاص، وأننا كبشر لا يمكننا أن نفكر ونتحدث إلا من خلال قدر من التعميم، وأن المستوى التعميمي للبحث الذي قدمته له لا يتطلب مني تناول التفاصيل على هذا المستوى من التخصيص. فقال إنه يجب عدم التعميم على الإطلاق في الدراسة الأدبية وأنه هو شخصيًا كان يكتب الجزء الخاص بالشعر الرومانتيكي في تاريخ كمبردج للأدب ولم يستخدم مصطلح «رومانتيكية» مرة واحدة. فقلت له بصراحة إن محاولته هذه لا تتسم بكثير من الحكمة، إذ كيف يمكن أن نستغنى عن المصطلحات بهذه البساطة، ألن يؤدي هذا إلى الحديث عن أعمال أدبية جميلة، لا ينتظمها أي إطار وربما بلغة خاصة ومتخصصه للغاية تكاد تشير إلى نفسها وحسب (أسميها الآن «أيقونية») تجعل التواصل غير ممكن والمعرفة مستحيلة ؟

لم تكن المناقشة ودية على الإطلاق، ولعله كان يتوقع من طالب دراسات عليا مثلي (من إفريقيا !) أن يذعن تمامًا لآرائه، ولكنه فوجئ بموقفي هذا. وبطبيعة الحال رفض الدكتور چاك أن يساعدني على الالتحاق بجامعة كمبردج، ولذا سافرت إلى الولايات المتحدة، إلى جامعة كولومبيا في نيويورك (وكانت هذه من أولى مواجهاتي مع النموذج المعلوماتي).

وقد وقع اختياره على أحد زملائنا، فألحقه بجامعة كمبردچ بالفعل، ولكنه قام «بتسويته» تمامًا هناك و«تبطيطه»، إذ طلب منه أن يقرأ في كل شيء تقريبًا. (والرغبة المعلوماتية هذه حينما تنهش إنسانًا فإنها تجعله يقرأ كل شيء حتى يعرف كل شيء، وينتهي الأمر بالمسكين أنه لا يعرف أي شيء. فالحقيقة غير الحقائق، كما سأبين فيما بعد). ثم اقترح البروفسير چاك على زميلنا أن يكتب رسالة عن شاعر فكتوري مغمور، يسمى جون كلير على ما أذكر (لمجرد أنه موضوع جديد لم يسبق لأحد الكتابة عنه). وانتهى الأمر بزميلي هذا أنه لم يكتب كلمة طيلة حياته بعد حصوله على الدكتوراه، لأنه بطبيعة الحال لا يريد أن يعمم وأي كلام إنساني يحتوي على قدر من التعميم. كما أنه كان يريد حشد كل المعلومات الموجودة على ظهر الأرض بخصوص بحثه، لأنه لا يوجد إطار تحليلي (أو نموذج تحليلي) يضبط عملية مراكمة المعلومات.

www.scantopdf.eu

وحينما كنت في الولايات المتحدة، صدر كتاب د. چاك وهاجمه كثير من النقاد بسبب ارتباطه الشديد بالجزئيات. وحينما ذهبت إلى جامعة كمبردچ عام ١٩٨٨ لزيارة ابنتي التي كانت تدرس هناك الأدب الإنجليزي، وسألت أحد أساتذتها عن د. چاك، فأخبرني أنه لا يزال يُدرّس وليس له أي تلاميذ من أي نوع، وأنه منعزل تمامًا عن كل الحركات الفكرية هناك. ولم أُدهش كثيراً فرؤيته كانت معادية للفكر، وكان ملتزمًا بشكل مرضي بالتفاصيل والمعلومات. وربما لو كان تركيبي النفسي مختلفًا لانتابتني الشكوك بخصوص طريقة إدراكي للواقع ولأذعنت لتحذيره من التعميم، أي تعميم، ولكنني والحمد لله لم أفعل.

جامعة كولومبيا

بدلاً من أن أذهب إلى إنجلترا، ذهبت إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٣، وفي البداية قضيت شهراً في جامعة ييل Yale. وعند وصولي عقدوا للطلبة الدارسين امتحانًا «موضوعيّا» multiple choice تكون فيه الإجابة إما بنعم أو لا لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي. فقضيت وقتًا طويلاً في تأمل الأسئلة، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية لا هي بنعم ولا بلا، وإنما تقع بينهما. وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها. وقد تقرر بناءً على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا. ولكنني مرة أخرى نظراً لثقتي بنفسي أخبرتهم أن الخلل ليس فيَّ وإنما في الامتحان، فهو امتحان سخيف لا يقيس مقدرات الطالب الحقيقية وإنما سرعة بديهته واستجابته، وأن السرعة غير العمق. كما بيَّنت لهم أنني لم يسبق لي أن أخذت امتحانًا وُضعت فيه الأسئلة بهذه الطريقة، ففي جامعة الإسكندرية كانت الإجابة على أسئلة الامتحان كلها على هيئة مقالات. وأكدت لهم أن أدائي بعد أن عرفت «الطريقة» أو «الحيلة» (بالإنجليزية : جيميك gimmick) سيكون مختلفًا تمامًا. وبالفعل قرروا أن يجربوا معي مرة أخرى، وفوجئوا بأنني حصلت على أعلى درجة بين المتقدمين. وكانت هذه من أولى المواجهات بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديَّتها وخيلائها.

وذهبت إلى نيويورك والتحقت بجامعة كولومبيا وهي جامعة كبيرة جدّاً. كان قسم اللغة الإنجليزية والأدب المقارن فيها يضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم.

www.scantopdf.eu

كنا في كولومبيا نهرول من حجرة إلى أخرى ونقرأ بشراهة ونتحدث بسرعة ولا نتفاعل بعضنا مع بعض إلا قليلاً وفي إطار من الإتكيت والشكلية. وكان الطلبة يتحدثون بلغة معقدة للغاية، وكأنها لغة مكتوبة. وحينما بدأت أطلع على الكتابات النقدية الأمريكية لاحظت أنها هي الأخرى قد كتبت بلغة معقدة، كل كاتب له مصطلحاته الخاصة. فظننت لوهلة أنني لا أعرف اللغة الإنجليزية بما فيه الكفاية، إلى أن حضر الأستاذ بازيل ويلي Basil Willey، مؤرخ الأفكار البريطاني الشهير، واستمعت لإحدى محاضراته، وكنت قد قرأت معظم كتبه نظراً لإعجابي الشديد بها. فذهبت إليه بعد المحاضرة وأخبرته عن مشكلتي مع لغة زملائي وأساتذتي وعن إحساسي بعجزي وجهلي. فضحك كثيراً وأخبرني أنه هو نفسه يجد صعوبة أحيانًا في فهم الأساتذة الأمريكيين، وطمأنني إلى أن ما أواجهه قد واجهه الكثيرون من قبلي!

وفي بداية الأمر أحسست برهبة موقفي: طالب مصري يدرس على يد بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم، ولم يكن هناك طالب عربي غيري. وحينما أعطوني قوائم النصوص والمراجع (بالإنجليزية: ريدنج لست reading list) (التي تتضمن النصوص التي يجب أن أقرأها والمراجع التي يجب أن أعود إليها) وجدتها طويلة بشكل لا يُصدق. فذهبت إلى أستاذي المشرف أسأله عن حقيقة الأمور، **كأي مصري لا يصدق ما هو مكتوب ويبحث عن القصة الحقيقية (الشفاهية عادةً)**. فلم يفهم الأستاذ ما أرمي إليه، وقال لي بصرامة بالغة إن المطلوب مني هو قراءة كل ما ورد في قوائم القراءة والتي كانت تضم كل شيء تقريبًا: الأعمال الكاملة لوليام وردزورث William Wordsworth وكوليردج وبرسي بيسي شللي Percy Bysse Shelley ولورد بيرون Lord Byron وجون كيتس John Keats، كما كانت تضم معظم المسرحيات العالمية الحديثة، وقصائد جون ميلتون John Milton وهربرت سبنسر Herbert Spenser كلها. وقراءة كل هذه الأعمال الأدبية في غضون ثمانية شهور (أي فصلين دراسيين) هو أمر مستحيل من ناحية الكم، فما بالك بالقراءة والاستمتاع والاستيعاب. ففقدت توازني بعض الوقت، وقدمت طلبًا بأن آخذ تقدير «غير كامل» (بالإنجليزية: إنكومبليت incomplete) في كل المواد، وهو يعني أنني لم أكمل متطلبات المقرر، وأن الأستاذ قرر أن يمهلني لحين الانتهاء منها.

وبمقدرة الدمنهوري على البقاء، استأجرنا أنا وزوجتي غرفة في فندق رخيص قذر

www.scantopdf.eu

(غرفة نوم صغيرة بها سرير وكرسيان ملحق بها ما يسمَّى «المطبخ» [بالإنجليزية : كتشنت Kitchenete] وهو عبارة عن حوض وبوتاجاز وثلاجة كل أولئك موضوع في مساحة لا تزيد عن مساحة دولاب، وعليه باب أشبه بضلف الدولاب). وبرغم أن الفندق كان يبتلع أكثر من نصف مرتبي تقريبًا، فإنه كان يقع حرفيّا بجوار مكتبة جامعة كولومبيا، وهذا أمر كان في غاية الأهمية حينذاك. وتفرغت تمامًا للقراءة والتحصيل. قرأت الأعمال الكاملة لكل الشعراء الرومانسيين الإنجليز (موضوع تخصصي) وكثيراً من الكتب النقدية عنهم، وكثيراً من المسرحيات الحديثة وأعمال ميلتون . . . إلخ. وخرجت من فترة «الحَضَّانة» هذه وقد تملكت ناصية الخطاب النقدي بشكل يسمح لي بالدخول في حوار مع زملائي وأساتذتي. ولكنني اكتشفت أنني أكاد أكون الطالب الوحيد الذي قام بهذه العملية شبه الانتحارية (إذ اكتفى الآخرون بقراءة الملخصات أو ما درسوه في مرحلة الليسانس)، فذاع صيتي لدرجة أنني بدأت إلقاء الدروس الخصوصية على أصدقائي. وكنت ألخص لهم كل القضايا النقدية والفلسفية فيما سميته لهم حينذاك «صيغ مترو الأنفاق» (بالإنجليزية : سبواي فورميولا subway formula)، وهي صيغ نقدية ذات مقدرة توليدية تُمكِّنهم من مواجهة أي نص رومانتيكي نظراً لأنها تحتوي على كل الاحتمالات الممكن ورودها، فكانت الصيغة formula بمنزلة النمط الأساسي أو النموذج الكامن، أما السبواي أو مترو الأنفاق فهذا يعني أن الصيغة يمكن قراءتها واستيعابها بسرعة حتى في أثناء ركوب مترو الأنفاق. (انتشر فيما بعد مفهوم مماثل في الجامعات الأمريكية، إذ كان يُشار لمثل هذه التلخيصات بكلمة «سبتس cepts» وهي النصف الثاني من كلمة «كونسبت concept» أي مفهوم، ثم يوضع في صيغة الجمع، فالملخص يركز على تلخيص المفاهيم وليس المفاهيم ذاتها). وحينما حل موعد الامتحان النهائي للماجستير في الصيف كان أدائي جيداً جدّا وتقديراتي مرتفعة إلى درجة أن سكرتيرة القسم ظنت أن الممتحن الخارجي (الذي استعانوا به في أثناء فصل الصيف) قيَّم إجابتي بطريقة متساهلة للغاية. فتم عرض أوراق الإجابة التي تخصني على أستاذ بجامعة كولومبيا، الذي أفتى بأنني أستحق الدرجة التي حصلت عليها.

وإذا كانت ثقتي بنفسي قد أنقذتني من التهلكة عدة مرات، فإنني كنت أرى عدم الثقة وهي تصرع بعض أصدقائي. كان لي صديق في الولايات المتحدة ذكي إلى أقصى درجة، ولكنه لم يكن يتمتع بأي ثقة بالنفس. ولذا كان يكتب الأبحاث ويعيد كتابتها ولا يقدمها

www.scantopdf.eu

إلا بعد إلحاح منا. ومرة ذهبت لزيارته فوجدته مبتئسًا لأنه وجد نفسه عاجزاً عن كتابة بحث مطلوب منه عن حوارات أفلاطون، فطلبت منه الأوراق التي كتبها فوجدت بحثًا ممتازًا فأخذت منه الأوراق بحجة أنني أريد قراءتها بتمعن في المنزل، وأرسلتها لأستاذه الذي منحه درجة الامتياز. فتعجب صاحبنا مما حدث، فقد كان متخصصًا في الإقلال من حق نفسه. المهم بعد عام تقريبًا وصله خطاب من إدارة البعثات لتجديد البعثة وأخبروه فيه بأن أستاذه يَعُدُّ بحثه عن حوارات أفلاطون أحسن ما قرأ من بحوث عبر حياته الأكاديمية ! ولكن مع هذا استمرت عدم ثقة صديقي بنفسه، فيبدو أنها مسألة أصيب بها منذ الطفولة، ولم يعد لها علاقة بما يواجهه من مواقف !

والتاريخ العربي مليء بوقائع تبين مدى أهمية الثقة بالنفس. فقد روى المؤرخون العرب أن التتار كانوا يدخلون في حرب نفسية مع الشعوب التي يغزونها فيقومون ببث جواسيس لهم بين الجماهير لتحطيم روحهم المعنوية عن طريق نشر الإشاعات عن مدى قوة التتار ومدى بطشهم. ولذا حينما كان التتار يدخلون إحدى المدن، كان سكانها يفرون، أما من بقي منهم، فقد بقي وهو عبارة عن هيكل، جسد دون روح. وقد روى أحد المؤرخين أن جنديا تتريا أراد أن يقتل عربيًا، ولكنه لم يجد سيفًا فطلب من العربي أن ينتظره حتى يعود، فظل العربي واقفاً إلى أن جاء الجندي وقام بذبحه. وفي رواية أخرى يقال إن العربي هو الذي ذهب بنفسه وأحضر السيف للجندي التتري ليقتله به. هذا يقف على طرف النقيض مما فعله قُطز، سلطان مصر في العهد المملوكي. فقد أرسل له ملك التتار رسالة يطلب فيها منه الاستسلام واستخدم عبارة «يا ابن عمي»، ويبدو أن هذه العبارة تحمل معنى الاستخفاف. فأشار مستشارو قطز عليه أن يأتمر بأمر ملك التتار. ولكنه بدلاً من ذلك قطع رؤوسهم وعلقها على بوابات القاهرة. فاستعاد المصريون الثقة في أنفسهم، وهزموا جيوش التتار في عين جالوت، وأوقفوا هذا الوباء الذي كان يريد تحطيم كل الحضارات الإنسانية عن وعي. وفي كتابي **عن الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة فى الإدراك والكرامة** أبيِّن كيف أن احتدام الأزمة داخل الكيان الصهيوني وتزايد ثقة الفلسطينيين بأنفسهم هو الذي أدى إلى اندلاعها، تمامًا كما أن انتصار حزب الله في جنوب لبنان ولَّد الثقة في النفوس مرةً أخرى فاندلعت انتفاضة الأقصى والاستقلال. هذا لا يعني أن الثقة بالنفس وحدها هي السبب في الانتفاضة، ولكنها ضرورية لها. وكما يقولون بالإنجليزية necessary but not sufficient ضرورية ولكنها ليست كافية .

www.scantopdf.eu

جامعة رتجرز

كانت نيويورك مليئة بالإمكانات الثقافية المجانية. عشنا بعض الوقت على مقربة من متحف الكلويسترز Cloisters، وهو متحف متخصص في فنون العصور الوسطى المسيحية في الغرب. وكنا نتردد أيضًا على متحف المتروبوليتان Metropolitan باستمرار، وهو ليس مجرد مُتحف وإنما مؤسسة ثقافية تعليمية كبرى (مثل كثير من المتاحف - الآن - في الغرب). وإلى جانب هذا، كان هناك عدد كبير من المتاحف المتنوعة (جوجناهيم - فريك - متحف التاريخ الطبيعي . . . إلخ). وتعلمنا في نيويورك كيف نأكل الأنواع المختلفة من الطعام (الصيني - الياباني - التايلاندي - الهندي - النيبالي - الإيطالي)، هذا إلى جانب حدائق النباتات والحيوانات المختلفة.

وبرغم *ارتفاع أثمان المسارح ودور عرض الأفلام*، *فقد كانت هناك طرق مخفضة* لدخولها، فكانت هناك تذاكر خاصة للمسارح للطلبة، كما كان هناك كشك في شارع برودواي، في منطقة المسارح يبيع التذاكر التي لم تُبع في ذلك اليوم بنصف ثمنها قبل عرض المسرحية ببضع ساعات. وكان هناك ما يسمَّى «تذاكر وقوف»، وهي أن يقف المشاهد طيلة المسرحية، فكنا نذهب إلى المسرحيات المشهورة المكلفة ونتوجه إلى شباك التذاكر قبل موعد بدء المسرحية بربع ساعة ونطلب تذكرة في أي مكان، فيخبروننا أنه لا يوجد سوى أماكن للوقوف فنقبل. وقد أتاح لنا هذا رؤية كثير من المسرحيات برغم الميزانية المحدودة. كما كنا نذهب إلى دور عرض السينما في حفلات الماتينيه. ولكن وجود سينما ثاليا Thalia بجوار الجامعة كان فرصة ذهبية. كان ثمن التذكرة دولارًا واحدًا إن دخل المتفرج قبل الثالثة. فكنت أذهب أنا وزوجتي قبل الثالثة ومعنا طعامنا وشرابنا ندفع الدولارين ولا نترك دار العرض إلا الساعة التاسعة مساءً نترنح من فرط الإعياء والمتعة بعد أن نكون قد شاهدنا ثلاثة أفلام ابتداءً من إنجمار برجمان Ingmar Bergman وانتهاءً بأكيرا كوروساوا Akira Korusawa. وهكذا قضينا عامًا حافلاً في نيويورك، نهلنا إبانه من معين الإمكانات الثقافية في نيويورك.

ولكن نيويورك كانت، رغم روعتها، باهظة التكاليف، وأصبح من العسير علينا، بل من المستحيل، أن نتمتع بما فيها من فرص ثقافية وترفيهية، خاصةً بعد أن حبانا الله ابنتنا نور، وأصبح من المستحيل البقاء في شقة صغيرة في نيويورك (بعد أن انتقلنا من الفندق)

www.scantopdf.eu

يلتهم معظم دخلنا. ولذا على الرغم من أن بعض أساتذتي في جامعة كولومبيا نصحوني بالبقاء فيها بحُسبان أنها جامعة ذائعة الصيت من مجموعة الأيفي ليج ivy league (والتي تعني حرفيّا نبات اللبلاب المتسلق، نسبة إلى مبانيها القديمة التي يعلوها هذا النبات، ومن هنا أصبح رمز العراقة والقدم)، فإنني انتقلت إلى جامعة أخرى هي جامعة رتجرز (في مدينة نيو برونزويك بولاية نيو جرسي، والتي تبعد ٣٠ ميلاً عن نيويورك). وتنتمي هذه الجامعة لمجموعة الأيفي ليج أيضًا، إلا أنها أقل شهرة من جامعة كولومبيا. وكانت تجربتي هناك مختلفة عما حدث في نيويورك. فالمدينة صغيرة، وحصلنا من الجامعة على سكن كبير رخيص للغاية تحيط به حديقة، تمكنت نور من أن تجري فيها وأن نبني لها أرجوحة تلعب بها. كما أنه نظرًا لقرب نيو برونزويك من نيويورك، كان بوسعنا أن ندخر شيئًا من المال ونذهب إلى هناك متى ما سنحت لنا الفرصة. فكأنني بالانتقال عن نيويورك أصبحت أكثر قربًا منها، إذ أصبحت متاحة لي.

وكان قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة صغيراً وحيويّا، فقد كان يشهد صراعًا حادّا بين مجموعة من الأساتذة من خريجي هارفارد («صبْية هارفارد The Harvard Boys» كما كانوا يسمَّون) الذين كانوا أكثر انفتاحًا على التيارات النقدية الجديدة من جهة، ومن جهة أخرى بقايا «النظام القديم» ممن يؤمنون بالمناهج الأكاديمية التقليدية المستقرة. وكان هناك أيضًا صراع حاد بين الشكليين ودعاة النقد الحضاري التاريخي.

كان الجو في القسم تجريبيّا منفتحًا تُدرَّس فيه مقررات مختلفة تغطي كثيراً من الموضوعات والأعمال الأدبية والمناهج البحثية، بل وكان هناك مقررات عن السينما والفنون التشكيلية وعلاقتهما بالأدب. وقد عينت معيداً في القسم (أو على وجه الدقة مساعد باحث [بالإنجليزية : ريسيرش أور تيتشنج أسيستانت resesarch or teaching assistant]، حيث إن وظيفة «معيد» لا توجد في الولايات المتحدة). وكان يُترك للمعيدين تحديد الطريقة التي يدرسون بها المقرر التمهيدي للغة الإنجليزية، شريطة أن يتفق خمسة منهم على الأقل على تدريس نفس الموضوع. فأعلنتُ عن مقرر بعنوان «مفهوم الشر في الأدب». ندرس فيه تطور مفهوم الشر في الأدب الإنجليزي من خلال نصوص أدبية إنجليزية مختلفة، وبذلك نُعرِّف الطالب بتاريخ الأفكار وتاريخ الأخلاق وندربه في الوقت نفسه على كيفية قراءة النصوص. والمقرر بذلك كان محاولة أولية في دراسة متتالية نماذجية تبدأ بالعصور الوسطى (چيفري تشوسر Geoffrey Chaucer : «قصة الواعظ

www.scantopdf.eu

المتجول» من **حكايات كانتربري**) مروراً بعصر النهضة (وليام شكسبير William Shakespeare : **ماكبث**) والقرن الثامن عشر (ألكسندر بوب Alexander Pope : **مقال عن الإنسان**) والقرن التاسع عشر (صمويل تايلور كوليردج : **الملاح القديم**) وانتهاءً بالقرن العشرين (ت. س. اليوت T. S. Eliot : **الأرض الخراب** - إرنست همنجواي Ernest Hemingway : **العجوز والبحر**). وحيث إنه كان من المفهوم أن النزعة الشكلية متفشية بين الطلاب والمعيدين، كان من المتوقع ألا يوافق أحد من المعيدين على اقتراحي الذي يركز على «المضمون» الإنساني والأخلاقي. وكانت مفاجأة للجميع أن ما يزيد على ثمانية معيدين وافقوا على اقتراحي وتكونت بالفعل «مجموعة الشر» (بالإنجليزية : إيڤيل جروب evil group) كما كانت تُسمَّى، وتمتع الطلبة بالمقرر أيما تمتع. وكان هذا إشارة إلى أن ما يسود من تقاليع ربما لا يكون بالضرورة تعبيراً عن رغبات الناس وتطلعاتهم الحقيقية. وهذه حقيقة مهمة لابد من تذكرها في عصر الإعلام والموضات المتلاحقة.

وكان أحد الاقتراحات المقدمة لهذا البرنامج هو دراسة روايات القرن الثامن عشر الطويلة الرديئة حتى يعرف الطلبة قيمة الأدب العظيم. وفي الاجتماع المخصص لمناقشة الاقتراحات اعترضت على هذا الاقتراح قائلاً إنه سيحرم بعض الطلبة من فرصتهم الوحيدة للتدريب على قراءة روائع الأدب. فقال صاحب الاقتراح إنه لم يكن، في واقع الأمر، جادّاً في اقتراحه والأمر كله من قبيل المزاح، وأنني لم أدرك «النكتة وخفة الدم» الكامنتين في اقتراحه. ومثل هذا التملص كان أمراً شائعًا في الستينيات: استخدام «المفارقة الساخرة» (بالإنجليزية: أيروني irony)، أن يقول المرء عكس ما يعني، للتخلص من المسئولية الخلقية، إذ إنه من خلال استخدامها يمكن للمرء دائمًا أن يتنصل مما قال بحجة أن ما قاله هو مجرد مفارقة ساخرة. ولكن المشكلة أنه في الماضي، كان الأديب أو الكاتب يستخدم عنصر المفارقة الساخرة، فيقف على أرضية أخلاقية صلبة يطل منها على العالم العادي ويوجِّه له سهام نقده، أما مستخدمو المفارقة الساخرة في الستينيات فكانوا يستخدمون ما يُسمَّى «المفارقة الساخرة الزلقة fleeting irony». فلا يقف الأديب على أرضية أخلاقية صُلبة، ومع هذا يوجه سهام نقده للجميع بما في ذلك نفسه، فتصبح كل الأمور نسبية زلقة!

وثمة واقعة نادرة في حياتي جعلت دراستي في الولايات المتحدة مثمرة للغاية من ناحية الكم والكيف. فدراسة الدكتوراه في الولايات المتحدة تنقسم عادةً إلى ثلاثة أقسام:

www.scantopdf.eu

المقررات- الامتحان الشفهي الشامل - رسالة الدكتوراه. وأول الأقسام وأهمها هو المقررات وتستغرق عادةً ما بين سنتين إلى ثلاث. ويدرس الطالب في أثناء هذه الفترة بعض المقررات الإجبارية (تاريخ اللغة الإنجليزية - إنجليزية العصور الوسطى)، كما أنه من الناحية النظرية يدرس ما يحب من مقررات، ولكنه في واقع الأمر عادةً ما يختار مقررات تصب في خمسة فروع هي عبارة عن التخصصات التي يختارها الطالب لامتحانه الشفهي الشامل (في حالتي درست آداب العصور الوسطى، وأدب عصر النهضة والقرن السابع عشر، والأدب الرومانسي، والأدب الأمريكي، والنظرية النقدية). وكل أستاذ يدرّس مقرره دون أن ينسق مع بقية الأساتذة، ودون أن تحكم الدراسة أي فلسفة عامة. ويحاول كل أستاذ أن «يغطي» أكبر قدر ممكن من النصوص الأدبية والنقدية والمراجع التي لها علاقة بمقرره. وقد أحصيت أنا وزوجتي عدد الصفحات المطلوب منا قراءتها في مقرر الأدب الأمريكي الذي درسناه معًا، فوجدنا أنه يزيد عن المائة صفحة كل يوم بالنسبة لهذا المقرر وحسب، وهذا أمر مستحيل وعبثي، فحتى لو تم إنجازه على المستوى المادي (من خلال «القراءة السريعة» التي تعلمناها في الولايات المتحدة)، فإن العقل لا يمكنه استيعاب كل هذا ! هذا بالنسبة لمقرر واحد، والحد الأدنى للمقررات أربعة والأقصى خمسة، أي أن المطلوب هو قراءة خمسمائة صفحة في اليوم ! (حينما ذكرنا هذه الإحصاءات فيما بعد لأستاذي الدكتور ديفيد وايمار David Weimer، الذي درّسنا المقرر، أصيب هو نفسه بالذعر). وكان علينا أن نكتب ثلاثة أبحاث لهذا المقرر. ونتيجة كل هذا أن إيقاع الدراسات العليا أصبح سريعًا لدرجة لا تسمح بأي إبداع حقيقي (في تصوري)، كما أن تعدد المقررات (وغلبة النزعة المعلوماتية على بعض الأساتذة) يؤدي إلى نوع من أنواع التشظي. وقد حاولت قدر استطاعتي أن أتجاوز ذلك عن طريق محاولة الربط بين ما أدرس من نصوص وأن أقرأ في الفلسفة حتى تظل عندي الصورة الكلية ولا أغرق في المعلومات. (حينما أقوم بكتابة عمل ما، أشعر بأن مثل هذا العمل له حدوده وفضاؤه، وحتى لا أقبع داخلهما محصوراً بحدودهما فأنا عادةً ما أقرأ كتبًا لا علاقة لها بما أكتب، حتى يظل خيالي خصبًا، وحتى تتفجر داخلي إشكاليات ربما لا يمكن أن أتوصل إليها إن ظللت داخل نطاق الموضوع الذي أكتب عنه وحسب).

منذ البداية عرفت أن إيقاع الدراسات العليا هو الجنون بعينه، فطلبت من أستاذي المشرف ألا أدرس أكثر من ثلاثة مقررات (أي دون الحد الأدنى) وتمت الموافقة على طلبي

www.scantopdf.eu

من قبَل لجنة الدراسات العليا (ربما رأفة بهذا الطالب المصري الجديد الوحيد). وبعد أن حصلت على درجة الامتياز في كل المواد في الفصل الدراسي الأول، كنت أذهب إلى من أعرفهم من الأساتذة، وأخبرهم بأنه بات من الواضح للجميع أنني طالب متميّز، وأنني أحب القراءة ومهتم بالفكر وأنني لم أحضر من مصر للتسلية. ثم أردف قائلاً إن نظام الدراسات العليا في الولايات المتحدة هو نظام تعليم جماهيري لا يسمح بأي شكل من أشكال التميُّز، وهذا أمر مفهوم تمامًا بسبب الأعداد الكبيرة نسبيًا. ولكن لم تُطبَّق عليّ نفس المعايير؟ وكثيراً ما أقنعت الأساتذة بأن يعطوني تقدير امتياز دون أن أقدِّم ورقة بحث، ولكني كنت أعطيهم كلمة شرف أنني سأقدِّم البحث فيما بعد، بعد كتابته في هدوء وسكينة. وكثيراً ما نجحت في إقناعهم، فكنت أقضي الصيف في كتابة البحوث المطلوبة، عندما يكون عندي متسع من الوقت. (حاولت أن أطبِّق نفس السياسة مع إحدى طالبات الدراسات العليا في مصر، فما كان منها إلا أن تناست الموضوع تمامًا بعد أن أعطيتها تقديراً عاليًا، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي حاولت فيها أن أفعل فيها ذلك).

بعد الانتهاء من المقررات كان عليّ اجتياز الامتحان الشفهي الشامل (بالإنجليزية: كومبرهينسيفز Comprehensives، أو أورالز Orals) حتى يمكنني أن أبدأ في كتابة رسالتي للدكتوراه. وكما أسلفت كان الامتحان في جامعة رتجرز مكونًا من خمسة أجزاء، هي عبارة عن خمسة تخصصات يختارها الطالب. وكنت قد تملكت ناصية مثل هذه الأمور تمامًا. كما أنني والحق يُقال درست ما طُلب مني بعناية وشغف شديدين، فجاء الممتحنون الخمسة، يمثل كل واحد منهم تخصصًا من التخصصات الخمسة التي اخترتها، وجلسوا حول المائدة ثم بدأت الأسئلة تنهال عليّ، وكان بعضها - والحق يقال - ذكيًا للغاية، ويتطلب إعمال الخيال والفكر. ولكن كان من بين الممتحنين أستاذ عُرف باهتمامه بالحقائق والمعلومات العامة أو المجردة وعدم الاكتراث بالنصوص. فسألني عن عدد قصائد ديوان الشاعرة الأمريكية إميلي ديكنسون Emily Dickinson فأخبرته بالرقم على وجه الدقة (الذي نسيته بعدها بطبيعة الحال)، ثم أضفت قائلاً إنني كنت أعرف أنه سيسألني هذا السؤال. فضحك وكانت إشارة للأساتذة أمثاله أن يطرحوا هذه اللعبة المعلوماتية السطحية جانبًا ويركزوا على ما هو أهم من ذلك. ثم طلب مني أستاذ آخر أن أضع وصفًا لمقرر لدراسة تاريخ النظرية النقدية الأدبية. وبطبيعة الحال، كنت أعرف أنهم

www.scantopdf.eu

يريدونني أن أبدأ بأرسطو أو أفلاطون، ولكنني قررت أن أصدمهم فقلت : الجرجاني، لأذكرهم بهويتي - دمنهوري مصري عربي مسلم يطل عليهم كأحد علماء الأنثروبولوجيا ويدرس حضارتهم دون أن يكون جزءاً منهما. فسألوني من عسى أن يكون الجرجاني؟ فقلت لهم إنه ناقد عربي كلاسيكي مهم، وصاحب نظرية نقدية رائدة. فقالوا : «حسنًا لو كنت في الولايات المتحدة ماذا كنت ستفعل ؟» فتنطعت وقلت : «أنا لا أنوي البقاء في الولايات المتحدة تحت أي ظروف». قالوا : «فلنفترض ذلك». فابتسمت وقلت : «حسنًا، لو افترض ذلك - وهو أمر صعب بعض الشيء عليّ - فإننا سنبدأ ولا شك بأرسطو». المهم بعد هذه المعركة الكوميدية المفتعلة الأولية، أصبح الأساتذة الممتحنون طوع يميني تمامًا، فلقد بيَّنت لهم حدود معرفتهم وجهلهم تمامًا بخلفيتي الثقافية، وانتهت المعركة بأنني اجتزت الامتحان بنجاح، بل أعطوني درجة الامتياز (بالإنجليزية : وذ ديستنكشان With Distinction»)، وكانت أول مرة في تاريخ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالجامعة تُمنح مثل هذه الدرجة، إذ إنه لا يوجد درجات في هذا الامتحان، ولكنهم وجدوا أن لائحة تأسيس الجامعة تضم بنداً يسمح بهذا. (ولنقارن هذا بما يمكن أن يحدث لمن يتحدى أساتذته في إحدى الجامعات المصرية : مصيره هو التحطيم الكامل مدى الحياة بلا هوادة ولا رحمة).

وبعد أن انتهيت من المقررات والامتحان الشفوي الشامل وأثبت جدارتي الأكاديمية، وحان وقت كتابة الرسالة، كان قسم الأدب الإنجليزي قد بدأ تجربة جديدة وهي أن يُعفى الممتازون من الطلبة من كتابة رسالة الدكتوراه على أن يكتفوا بتطوير بحثين من الأبحاث التي كتبوها في أثناء دراسة المقررات، وأن يُلقي الطالب محاضرة عامة (هي الأخرى بمنزلة رسالة قصيرة) على أن تحل هذه الرسائل الثلاث محل رسالة الدكتوراه. وقد قبلت أن أخوض هذه التجربة بعد طول تردد، نظراً لخشيتي أن يُقال في مصر إنني لم أكتب رسالة للدكتوراه لأنني «فشلت» في دراستي. وأنا لا أحب الدخول في المعارك الصغيرة، وأفضل الاستسلام فيها حتى لا تستنفد طاقتي فيما لا يفيد (دائمًا أنصح أصدقائي وتلاميذي أن يبتعدوا عن المعارك الصغيرة التي تُفرض عليهم، والتي يمكن أن تستنزف الإنسان بل وتقضي عليه. ومصر الآن عامرة بالمعارك الصغيرة في كل مكان، وقانا الله وإياكم شرها!). ولكن، لحسن حظي، تضخمت رسالتي الأولى، التي كان من المفروض ألا تتجاوز مائة صفحة، تضخمت إلى أن وصلت خمسمائة، وأصبح من الحتمي أن أترك

www.scantopdf.eu

النظام الجديد وأتبع النظام القديم. (ومع هذا لابد وأن أشير إلى أن التجربة قد فشلت، فالذين خاضوها بنجاح لم يجدوا عملاً بعد ذلك. فالبيروقراطية الأكاديمية في الولايات المتحدة كانت تسأل المتقدم لشغل وظيفة ما عن تخصصه الدقيق، وحينما كان يذكر أنه كتب ثلاث رسائل قصيرة كان طلبه يُرفض).

ونفس المنطق يفسر حادثة أخرى في حياتي. لقد بدأت كتابة رسالتي للدكتوراه يوم ٩ من يونية عام ١٩٦٧ حين أدركت حجم الكارثة التي حاقت بنا. ساعتها قررت الانتهاء من دراستي حتى نعود لنساهم بما عندنا في إعادة بناء الوطن الجريح. ولم تكن سنة ١٩٦٧ بالنسبة لمن يقيم في الولايات المتحدة تعني البطش الأمريكي/ الصهيوني بمصر وحسب، وإنما كانت تعني أيضًا العربدة الأمريكية الكاملة في فيتنام، وعمليات الإبادة التي كانت القوات المسلحة الأمريكية تقوم بها دفاعًا عن حكومة عسكرية فاسدة وعن مصالحها الإستراتيجية ضد شعب آسيوي يحاول أن يقرر مصيره. المهم قررت أن أقدم رسالتي للدكتوراه ثم أرفض الحصول عليها بعد مناقشتها وإقرارها احتجاجًا على السلوك الأمريكي في مصر وفيتنام. ولكن المضحك أنني فكرت في مصيري في مصر بعد العودة، إذ إنهم كانوا سيقولون: «لقد فشل، وهو يغطي فشله هذا بمسألة الاحتجاج». وعبثًا كنت سأحاول الدفاع عن نفسي، ثم سأحاول الحصول على الدكتوراه في مصر، وسأدخل في متاهات تعطلني عن مشروعي الفكري الذي كنت أود التفرغ له. فعدلت عن قراري الثوري (ولم أندم على ذلك فيما بعد).

وكما قلت، كان القسم في رتجرز صغيراً إلى حدٍّ كبير. ومن هنا بدأت أتفاعل معه ومع من حولي، وهو تفاعل أخذ وعطاء، فكانت هناك المحاضرات العامة التي كان كبار المفكرين الأوربيين والأمريكيين يلقونها، وكان هناك نادٍ للسينما، وجلسات طلبة الدراسات العليا، حيث كنا نناقش أهم الأمور وأبسطها.

كنت أنظر من حولي وأتفاعل ولا أفقد ذاتي. فلنأخذ على سبيل المثال «طريقة التحية»، وهي مسألة محفوفة بالمخاطر في الولايات المتحدة. فالتصافح باليد، كما نفعل في بلادنا، أمر نادر، كما أنهم لا يحبون أن يضيعوا وقتهم في السلام (كما نفعل نحن). وكثيراً ما كنت أحضر حفلاً مع بعض الطلبة والأساتذة، وحينما نتقابل اليوم التالي، كنا لا نحيي الواحد منا الآخر، وكأننا لم نلتق قبل ذلك. وكان ذلك يسبب لي الألم في بداية

www.scantopdf.eu

الأمر. ولكني تعودت عليه وتأقلمت. فكنت أنظر بطرف عيني قبل إلقاء التحية لأرى هل ستُقابل بالتجاهل أو الترحاب ؟

و«طريقة التحية» لا تقل تركيبًا، فنحن في مصر نصافح النساء والرجال ولكن لا نقبِّل إلا الرجال (على الوجنتين) ممن تربطنا بهم علاقة حميمة للغاية. أما في الولايات المتحدة، فتعلمنا أن تقبيل الرجال له مغزى آخر تمامًا، أما تقبيل النساء على الوجنتين فهو من قبيل التحية (وعدم التقبيل يُعدُّ من سوء الخلق). وكان علينا تبني هذه الطريقة. (حينما حضر أستاذي إلى مصر قبَّل زوجتي وقبَّلت زوجته، فضحكت كل الطالبات في الكلية، وكان عليَّ أن أشرح لهن المضمون الاجتماعي للتحية. ومازلت أصاب بحيرة بالغة حينما أحضر حفلاً في القاهرة يضم مصريين وأمريكيين، إذ علينا أن نتبنى طريقتين مختلفتين للتحية في نفس الزمان والمكان، فحينما أقابل سيدة ما أتأكد من جنسيتها أولاً ثم أصافحها حسب خطابها الحضاري حتى لا أقع في خطأ حضاري جسيم).

ولكنني مع هذا لم أكن متلقيًا سلبيًا لمقاييس المجتمع الأمريكي. فقد اكتشفت، على سبيل المثال، أن كثيراً من عبارات التحية التي نستخدمها بالعربية لها وقع مختلف بالإنجليزية (والمكون الحضاري أمر لا يمكن تجاوزه). فمثلاً إن قلت لرجل بالعامية المصرية «واحشني» (أي «إني أفتقدك») فإن ترجمتها بالإنجليزية هي آي ميس يو «I miss you». وفي أمريكا في الستينيات كان لمثل هذه العبارة، إن قلتها لشخص من نفس الجنس، إيحاءات قوية (أحيانًا جنسية). فاللغة الإنجليزية لغة تم ترشيدها تمامًا، ومن هنا لابد للمتحدث أن يكون مقتصراً للغاية في التعبير عن عواطفه. فوجدت أنني لو استسلمت للغة الإنجليزية لضاعت مني لغة العواطف القوية، ولذا كنت أستخدم العبارة التالية : «كما نقول بالعربية، لقد افتقدتك». «As we say in Arabic, I miss you» وبذلك أحيِّد المكون الحضاري أو أجعله عربيًا بأن أجعل المرجعية عربية، تسمح بالتعبير عن العواطف. وقد وجد الكثيرون في قسم اللغة الإنجليزية هذه الصياغة اللفظية ممتازة فكانوا يستخدمونها، برغم أنهم أمريكيون، حتى يتحرروا قليلاً من حدود لغتهم الباردة، وحتى يمكنهم التعبير عن عواطفهم. وكنا حينما نلتقي في الصباح في القسم نستخدم العبارة التي أشرت إليها ونضحك من المفارقة.

وفي طريق عودتي إلى مصر أنا وزوجتي وابنتي، قررنا أن ننفق كل ما ادخرناه في أثناء

www.scantopdf.eu

إقامتنا (ومع انتهاء المدة كان مبلغًا محترمًا نظراً لأنني كنت أحصل على إعفاء من مصاريف الجامعة نتيجةً لتفوقي، وكان قانون البعثات أيامها ينص على أن من يحصل على مثل هذا الإعفاء ترسل له البعثات المبلغ كاملاً كمكافأة. كما أنني عملت في مكتب الجامعة العربية في نيويورك بعض الوقت، كما سأبين فيما بعد). وكانت رحلة ممتعة بالفعل. فقد ركبنا عابرة محيطات تسمى كريستوفرو كولومبو مشهورة بترفها. ونزلنا في البرتغال لمدة يوم، ويوم آخر في إسبانيا، واستقر بنا المطاف في نابلي، إيطاليا، وبقينا فيها عدة أيام، ومنها إلى روما ثم فينيسيا ثم سيينا وسان جمنيانو وڤيرونا وفلورنسه والبندقية وميلانو، ثم اتجهنا إلى سويسرا حيث قضينا بضعة أيام في جنيف ولوزان، ومنها إلى فرنسا حيث قضينا شهراً في باريس (وفرساي وشارتر)، ومنها إلى لندن حيث قضينا شهراً في إنجلترا (منطقة البحيرات [حيث استأجرت سيارة وسرنا بمحاذاة نهر دادون الذي كتب عنه وردزوث مجموعة من السونتات] - إسكتلندا، حيث تركنا ابنتنا عند بعض الأصدقاء - لندن حيث قضينا بضعة أسابيع نتنقل بين المتاحف والقلاع والقصور والمسارح). وبعد أن جاءت ابنتنا من إسكتلندا ذهبنا إلى هولندا ومنها إلى ألمانيا حيث تسلمنا سيارة فولكس فاجن في الشمال وقدنا السيارة إلى ميونيخ ومنها إلى النمسا، فنابلي في إيطاليا ومنها إلى بيروت فالإسكندرية. وبذلك نكون قد قضينا أربعة شهور زرنا خلالها معظم معالم أوربا (متاحف وحدائق وقصور وآثار). عدنا بعد كل هذا إلى الإسكندرية حيث كان الأهل في الاستقبال. وأذكر أننا حينما دخلنا المياه المصرية، كان أحدهم يحمل راديو ترانزستور، وسمعت أغنية «مال عليّ مال» للمطربة فايزة أحمد (كلما سمعتها أثارت شجوني). ثم رأينا قوارب بخارية مسرعة نحو الباخرة فابتسمت وقلت لزوجتي: «الكوسة المصرية بدأت»، فوافقني من حولي، واستنكروا الموقف. وإذ بي أرى ابن عمي وزوج أختي فادية (النقيب إسماعيل المسيري)، رئيس المحطة البحرية، هو قائد المظاهرة البحرية، وأنني المستفيد من الكوسة، وحينما عانقني بحرارة أمام الجماهير، تصببت عرقًا، وكانت عيوني تسترق النظر للآخرين لأرى مدى دهشتهم واستنكارهم للكوسة المتدفقة! ومع هذا يجب أن أضيف أنني لاحظت أنه حين بدأ مراقبو الجمارك في تقدير قيمة ما أحضرت من أدوات كهربائية من الولايات المتحدة، كانوا يبالغون في ثمنها. وأدركت أنهم يفعلون ذلك «لإرضاء» ابن عمي، الذي كان يتسم بالصرامة. فأخبرتهم بأن في هذا ظلما لي، وأنني يجب أن أُعامل كما يُعامل كل المبعوثين من زملائي، وأنني لا ذنب لي إن كنت ابن عمه. فضحك المراقبون وبدءوا في معاملتي بالمعايير العادية.

www.scantopdf.eu

بعض من عرفت في الولايات المتحدة

كوَّنت في الولايات المتحدة مجموعة من الصداقات التي كانت خير عون فكري ومعنوي لي. تعرفت في نيويورك على فرانسيس باز Francis Paz، وهو أستاذ أمريكي متخصص في نجيب محفوظ، حوَّل حياته إلى عمل فني - كل شيء فيها تعبير عن محاولة للوصول إلى الجمال والنظام. وهو من أصل مكسيكي من ناحية الأب، إيراني من ناحية الأم، وكان يجد أن الحياة الحديثة بنسبيتها الشديدة ستودي بالإنسان، ومن هنا تمسكه الشديد بالجمال وأشكاله المختلفة، ثم تمسكه الشديد بأهداب دينه. بل إن الجمال عنده يمتزج بالدين تمامًا ويكاد التزامه بهما يكون في نفس المنزلة. كنا نجد في منزله مخطوطًا عربيًا جميلاً وقطعة سجاد قديمة وقطعة من السيراميك وأيقونة بيزنطية. وكان يتردد على كنيسة مجاورة لمنزله، ولكنه كان يبحث أيضًا عن الكنائس التي تؤدي الموسيقى الدينية بالمستوى الذي يرضي ذوقه. مازلنا نحل ضيوفًا عليه هو وزوجته (ڤيڤيان) حينما نذهب إلى نيويورك.

ومن أطرف الوقائع التي حدثت لي في نيويورك أنني حضرت عام ١٩٦٤ حفلاً أقامه طالب ثري من زملائي في جامعة كولومبيا يسمَّى چون كاڤالتو John Cavalletto. ثم بعدت الشقة بيننا، إلى أن عدت إلى الولايات المتحدة في السبعينيات، فوجدت أنه أصبح من أهم الشخصيات اليسارية المعادية لإسرائيل. فحصلت على رقم تليفونه ودعوته لطعام الغداء. وحينما حضر أخبرنى أن الحفل الذي حضرته عنده شكَّل لحظة فارقة في تطوره السياسي لأنه سمع مني لأول مرة عن تلك الحقيقة البدهية التي يعرفها أي مثقف مصري، وهي أنه لا يوجد اختلاف جوهري بين الحزبين الجمهوري والديموقراطي، ومن هنا لا يوجد تداول حقيقي للسلطة، وأن هذا فتَّح عينيه على طبيعة النظام السياسي في الولايات المتحدة، ومن هنا بدأ يبحث عن صيغة سياسية تتجاوز النظام القائم.

وقد تعرفت في كولومبيا إلى المفكر العربي/ الأمريكي إدوارد سعيد الذي كان يدرِّس في كولومبيا، وكان على وشك الحصول على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة هارفارد. ولم نتحدث ساعتها عن الصراع العربي/ الإسرائيلي، وإنما تحدثنا عن أمور كثيرة خاصة بالمجتمع العربي وبالحضارة العربية. كما تعرفت إلى الدكتور يحيى العزبي، الأستاذ بالجامعة الأمريكية (إذ كنا ندرس معًا مقرراً في الدراما الحديثة). كما

www.scantopdf.eu

تعرفنا إلى زوجته أميرة، وقد نشأت بين أسرتينا صداقة (أدامها الله) تثرينا إنسانيّا وثقافيّا وعاطفيّا، لا تختلف كثيراً عن صداقتنا مع د. عمر وهدى خليل اللذين تعرفنا إليهما إبان الفترة الثانية التي قضيناها في الولايات المتحدة.

كما توطدت الصلة مع زميل آخر لي وكان واعظًا بروتستانتيّا من الجنوب، تخرج في جامعة هارفارد (قسم اللاهوت) وقرر الحصول على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة كولومبيا (إذ كان قد قرر أن يهجر وظيفته الدينية). كان چون سميث (ليس اسمه الحقيقي) إنسانًا متوحشًا يعيش على الفطرة (كنت أشير له بأنه المتوحش النبيل [بالإنجليزية: نوبل سڤيج noble savage])، يحس بالضياع الشديد في نيويورك بسبب برود الناس فيها. وكان هو متوقد العواطف، كرمه لا حدود له، ولعل هذا ما جمعنا. ولكنه كان من أوائل النماذج التي قابلتها لإنسان غارق في المعلوماتية يحاول في الوقت نفسه الوصول إلى رؤية كلية مترابطة تمام الترابط (وهذه خلطة مستحيلة، ذئب هيجلي معلوماتي سأتناوله بالتفصيل فيما بعد). ثم بدأ يميل تدريجيّا إلى البحث النهم عن الحقائق المادية والمصمتة، أي أنه غرق في المعلوماتية.

بعد أن تركت جامعة كولومبيا للدراسة في جامعة رتجرز كان هناك سلسلة من الكتب النقدية البسيطة هدفها مساعدة الطلبة على دراسة الأدب الإنجليزي تدفع مكافأة مقدارها ٧٠٠ دولار نظير أي مقدمة نقدية تنشر في السلسلة (وهو مبلغ لا بأس به في الستينيات). فتقدمت بطلب كتابة دراسة عن الشاعر الإنجليزي وليام وردزورث وتقدم جون سميث بطلب لكتابة كتاب عن كوليردچ، فقُبل طلبه ورُفض طلبي. وحينما استفسرنا عن السبب كان الناشر صريحًا واضحًا إذ قال إن الاسم العربي سيجعل الطلبة يحجمون عن شراء الكتاب (وكان محقا في هذا). فطلبت من صديقي أن يتقدم بطلب باسمه لكتابة الكتاب عن وردزورث على أن أقوم أنا بكتابته، فقُبل طلبه. وقمت أنا بكتابته بالفعل. وحينما جاء دوره ليكتب الكتاب عن كوليردچ عجز تمامًا، إذ هاجمه **الذئب المعلوماتي**. فقمت بكتابته ولكنه أضاف بعض المعلومات (التي شوهت الكتاب في تصوري). ظلت الصداقة قائمة بيننا بعض الوقت إلى أن تقدم «بأعماله» النقدية ليُرقى في كليته. فقُبل كتاب وردزورث ورُفض كتاب كوليردچ. وكان هذا من شأنه أن يجعل العلاقة بيننا تبرد كثيراً، برغم استمرارها بعض الوقت بعد ذلك.

www.scantopdf.eu

وبعد وصولي إلى جامعة رتجرز مباشرةً انضم إليها البروفسير وليام فيليبس William Philips، وتعود شهرته إلى أنه أحد مؤسسي **مجلة البارتيزان ريفيو** Partisan Review، وهي مجلة فكرية ذات اتجاه يساري معاد للشمولية، ابتعدت تدريجيّا عن الماركسية مع احتفاظها بالحس الاجتماعي والتاريخي والحضاري. وقد أحضر البروفسير وليام فيليبس مجلته معه، وبدأت تُنشر من جامعة رتجرز. كان البروفسير وليام فيليبس يُدرّس مقرراً في النقد الأدبي من أرسطو حتى العصر الحديث، وكانت محاضراته في النقد الحديث مليئة بالحكايات الشخصية الصغيرة عن علاقته بجان بول سارتر وكيف أن سيمون دي بوفوار كانت تغار عليه تمامًا من البنات الصغيرات برغم كل حديثها عن الحرية والانفتاح. وما الذي قالته ابنة إيزاك بابل (الكاتب السوفيتي) عن السبب الحقيقي لإعدام أبيها (ادعت السلطة السوفيتية أنه كان معاديًا للثورة. وفي حقيقة الأمر، كان أحد عملاء المخابرات عشيقًا لأمها وقرر التخلص من السيد الوالد).

وكانت البارتيزان ريفيو مركزاً يتجمَّع فيه كثير من المثقفين اليهود. وكان البروفسير فيليبس، وهو من كبار المثقفين الأمريكيين اليهود، يدعوني لبعض الحفلات التي تعقدها الريفيو، فتعرفت إلى الكثيرين منهم. كان من بينهم، على سبيل المثال، دانيال بل Daniel Bell الذي كان قد بدأ يُقدّم أطروحته الخاصة بنهاية الأيديولوجية ونظرية التلاقي بين كل المجتمعات الصناعية، اشتراكية كانت أم رأسمالية؛ وليسلي فيدلر Leslie Fieddler الذي كان لا يكف عن الحديث عن رسالة اليهودي بحُسبانه الغريب الأزلي وعن الإسكاتولوجي (نهاية الأيام)، وإيرفنج هاو Irving Howe الذي كان يتحدث عن رؤية للعدالة الاجتماعية خارج نطاق الاشتراكية (ولكنه مع هذا من أكبر مؤيدي إسرائيل).

أذكر مرة أن البروفسير فيليبس طلب مني أن أكتب بحثًا عن كتاب الشعر لأرسطو ففعلت وقرأته في المحاضرة، وكان تعليقه طريفًا وحكيمًا للغاية إذ قال ساخراً: «مستر المسيري كلنا نعرف أنك ذكي للغاية، بل نعرف أنك تفوق أرسطو علمًا، ولكن فلتحاول دائمًا أن تفهم قبل أن تصدر أحكامك». وهذه بالمناسبة حقيقة! فأي طالب في أي جامعة في العالم «يعرف» قدر ما عرفه أرسطو عشرات المرات من ناحية المعلومات، أما من ناحية المقدرة على التحليل والرؤية النقدية التي تصل إلى جوهر الأمور، فالأمر جدٌّ مختلف. كان بحثي ماركسيّا ملتهبًا أحاول أن أربط فيه بين نظام العبودية وجماليات أرسطو. وقد

www.scantopdf.eu

قمت بدمغ الفيلسوف اليوناني بطبيعة الحال «لسكوته عن الظلم المحيط به ولانحيازه للأسياد ضد العبيد». ولم يكن حديث البروفسير فيليبس لي درسًا في التواضع وحسب، وإنما كان درسًا في ضرورة أن يسبق الحكم الأخلاقي (أو الطبقي أو السياسي) عملية فهم وتفسير (وهذا ما أطالب به في الوقت الحالي في علاقتنا بالصهيونية وإسرائيل، بل مع كل الظواهر، على أن نبتعد عن الشجب والشتم دون أساس من الدراسة).

ومن المهم أن أذكر هنا علاقتي العميقة بالبروفسير فيليبس وتبنيه لي وتقديمه الكثير من العون لي (بما في ذلك إتاحة الفرصة لي للعمل في الريفيو). وعلاقتي به تقف على طرف النقيض من الأسطورة التي يروجها بعض الطلبة المصريين من أن الأستاذ اليهودي اضطهدهم وأعطاهم من الدرجات أقل مما يستحقونه. ولا شك في أن هناك أساتذة متعصبين، ولكن هناك أيضًا الكثيرين أمثال الأستاذ وليام فيليبس، ولذا يجب عدم التعميم.

ومن أساتذتي أذكر أيضًا البروفسير ديفيد وايمر الذي تربطني به حتى الآن صداقة حميمة. وقد كان هو المشرف على رسالتي للدكتوراه. كنا نلتقي مرة أو مرتين في الأسبوع نناقش كل شيء ونسير معًا في الطرقات والحدائق والمطاعم. وكنت قد بدأت في عقد لقاء أسبوعي في أحد المقاهي في مدينة نيو برونزويك سميته «يوم الجمعة الرعوي» (بالإنجليزية: باستورال فرايداي Pastoral Friday)، أي أنه لقاء يستدعي الجو المثالي الخالي من الآلام والشكوك والصراع، عالم التلقائية والفطرة السليمة التي لم تفسدها الحضارة ولم تخربها المدنية، الذي يفترض أن الرعاة يتحركون في إطاره (في الأناشيد الرعوية في التراث الغربي). كنت ألتقي أنا وأصدقائي وكل من يحب أن ينضم لنا في ذلك اليوم، وكان الشرط الأساسي في هذا اللقاء ألا يتحدث أحد في الأمور الأكاديمية، وأن ننطلق على سجيتنا نتحدث ونثرثر ونأكل وندخن السيجار الرخيص. كان ديفيد وايمر يأتي أحيانًا إلى لقاء الجمعة الرعوي ويتمتع به أيما تمتع. وقد ساعدني البروفسير وايمر وشجعني عبر مراحل كتابة رسالتي للدكتوراه (كما سأبين فيما بعد). كان يتحمس كثيرًا لما كنت أكتبه ويرى أن فيه كثيرًا من الحكمة وشيئًا من الجنون، وأن نسبة الحكمة أكبر من نسبة الجنون، وكان كثيرًا ما يقرأ ما أكتب من أبحاث على الطلبة. وعندما قدمت له النسخة الأولى من رسالتي للدكتوراه أخبرني شفهيًا أنها رسالة متميزة. وحين عُدت إلى مكتبي وجدت رسالة منه مكتوبة من سطرين يقول فيهما: «دعني أخبرك، بهذه الطريقة الرسمية

www.scantopdf.eu

إلى حدٍّ ما، إنك كتبت عملاً متميزاً» Let me tell you, in this more or less formal way, you have written an outstanding dissertation». وبعد مناقشة رسالتي للدكتوراه كتب لي رسالة طويلة يخبرني فيها أنني لابد قد عانيت الكثير، ولكن إحساسي الداخلي بالرضا (في مقابل الاعتراف الأكاديمي بالرسالة) هو خير تعويض لي .

أما البروفسير وليام كيلوج William Kellog أستاذ أدب العصور الوسطى، الذي درست على يديه شعر العصور الوسطى، فقد نصَّب نفسه أبًا لي، تبناني أنا وأسرتي (لعله كان يشعر بالوحدة بعد أن تركه أولاده). كان يدعوني دائمًا لتناول طعام الغداء بشكل شبه دوري، وقد أخبرني ونحن نتناول عشاء الكريسماس السنوي عنده أنه حينما يقابلني في الصباح فإنه يستمد قدراً كبيراً من الحياة .

وثمة قصة حزينة في حياتي، كان البروفسير كيلوج هو أحد أبطالها. إذ كان يشرف على رسالة للدكتوراه، وكان موضوعها هو تحقيق مخطوط لإحدى الترجمات اللاتينية في العصر الوسيط لكتاب الشعر لأرسطو. وكانت المخطوطة تحتوي على بعض جمل بدا لأول وهلة أن لا معنى لها، ولذا سببت حيرة عميقة للطالب الذي كان يكتب الدكتوراه ولأستاذه الدكتور كيلوج. وتصادف أنني اطلعت على المخطوطة، فأحسست أن الجمل التي تبدو كأن لا معنى لها قد تكون ترجمة ركيكة لأبيات شعر عربية، ومن هنا فالمخطوطة ليست ترجمة مباشرة لكتاب الشعر لأرسطو، وإنما قد تكون ترجمة لشرح ابن رشد له. (وكنت قد تعرضت للموضوع في رسالتي للماچستير في جامعة كولومبيا). فأخبرت الطالب عن الأصل المحتمل، وتطوعت أن أفحص المخطوطة بعناية أكبر حينما أعود لمصر. وبعد عودتي أحضرت تحقيق د. عبد الرحمن بدوي لشرح أو ترجمة ابن رشد لكتاب الشعر، وكم كانت فرحتي بالغة حين اكتشفت أن تخميني كان في محله. وقضيت يومين في المكتبة، ونجحت في حل كل المشكلات التي أدت إلى توقف البحث، ووضعت نتيجة بحثي في خطاب أعطيته إلى صديق سافر إلى الولايات المتحدة على أمل أن يرسله عن طريق البريد لصاحب البحث. ولكن بعد عدة سنوات سألت عن الطالب، فقالوا لي إنه لم يتسلم الخطاب قط. ولا أدري هل هو إهمال من مصلحة البريد الأمريكية، أو أن صديقي حامل الخطاب لم يف بوعده. المهم بعد سنوات من البحث المضني الذي لا طائل وراءه، اضطر صاحبنا إلى أن يَغيِّر موضوع رسالته .

www.scantopdf.eu

ومن أعز أصدقائي في الولايات المتحدة وليام جولدن William Golden (وكنا نسميه بِل، وهو الاختصار الشائع واسم الدلع لوليام. ولكنه كان يُسمِّي نفسه بِل ذا جولدن Bill, the Golden، بل الذهبي، كما لو كان أحد فرسان العصور الوسطى). كان دائم الابتسام، من أصل كَاثوليكي لا يكترث كثيراً بالإنجاز في رقعة الحياة العامة. وكان يعيش مع أبويه، وهذا أمر نادر للغاية في الولايات المتحدة، إذ إنه إذا بلغ الفرد سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة فإنه لابد أن يعيش بمفرده، ومن هنا يبدأ في استيعاب قيمه من المجتمع المحيط به: الإعلام أو مجموعة الأصدقاء التي يعيش معها، فتتم عملية صياغته وقولبته اجتماعيّا بل وتنميطه بسرعة شديدة وكفاءة عالية وبدون تدخل الأسرة. أما بِل فظل يعيش مع أبويه، وكانت النتيجة أنه ظل مستقلاّ في شخصيته عن المجتمع وعن أقرانه، وأصبح عنده وقت فراغ كبير (فهو ليس مضطرّا لأن يعد طعامه لنفسه أو لغسل ملابسه). وكنت قد بدأت حياتي المكثفة سريعة الإيقاع التي استوعبتها كتابة الدكتوراه والاشتغال بإعطاء محاضرات عامة عن مصر أو عن الصهيونية، الأمر الذي لم يكن يدع لي دقيقة أستريح فيها أو أتواصل إنسانيّا مع نفسي أو مع غيري. فكان بِل يأتي لزيارتي كل أسبوع ويجلس على عتبة منزلي فأخرج «وأضطر» للجلوس معه، ويأتي الأصدقاء ونضطر إلى أن نقضي بضع ساعات صفاء لا يشغلنا فيها الزمان بما حمل. وقد أصبحت هذه عادة أسبوعية.

وبدأت في هذه المرحلة من حياتي الاهتمام بمن أسميهم «اليتامى» و«الأبرياء»، وهم أشخاص يتسمون بالبراءة لم يفقدوا آباءهم بالضرورة ولكنهم وجدوا أنفسهم عزلاً أمام المجتمع الحديث المتوحش الذي لا ينتصر فيه سوى الأقوياء، والذي يقوم بتهميشهم وتهشيمهم. ومن أكثر اليتامى حزنًا صديقي بيتر Peter (ليس اسمه الحقيقي) وكان شخصًا رقيقًا للغاية. ولكن أبويه كانا يريدانه شخصية قوية مستقلة «تعتمد على نفسها» إلخ. وليس كل البشر عندهم هذه المقدرة (ترى زوجتي أنه كلما امتدت فترة الحضانة قويت شخصية الطفل على عكس ما يتصور الكثيرون، وأنه إن دُفع بالمرء إلى عالم الصراع اليومي في مرحلة مبكرة وهو غير مستعد لها فإن شخصيته تهتز). وشاء حظ بيتر أن أباه كان يعمل في مجلس المدينة، وكان يأتي له في الصيف بعمل في السجن، والسجن له قوانينه الخفية الخاصة: تهريب الطعام والمخدرات - إدخال البغايا - التعامل مع أسوإ البشر. فكان يخرج من عمله الصيفي محطمًا تمامًا. وبعد أن تعرفت إليه أخبرته أنه يمكنه

www.scantopdf.eu

أن يخبر أبويه بأنه لن يأخذ وظيفته الصيفية المعتادة، وأنهما لو رفضا الإنفاق عليه (وكانا متيسري الحال) فيمكنه الإقامة معي في منزلي طيلة فصل الصيف. ونجحت الخطة، وانتصر في المعركة وقضى أول صيف له دون أن يذهب إلى السجن، واسترد هذا اليتيم كثيراً من براءته التي فقدها. ومازلت أهتم باليتامى والأبرياء هؤلاء، حتى يذوقوا التراحم في مجتمعات لا قلب لها، وحتى يمكنهم البقاء في مجتمعات البقاء فيها للأقوى.

وقد حدثت لي واقعة في الكويت أجد أنها جديرة بالتسجيل. كنت أدرِّس مادة الشعر، وكان بين الطالبات طالبة كويتية متفوقة في هذه المادة برغم أنها كانت تدرس في كلية العلوم. واتصلت بي هذه الطالبة عدة مرات لمقابلتي، وكنت أعدها خيراً وأؤجل الموعد (إذ كنت قد وقعت في براثن الموسوعة). وفي آخر موعد، اتصلت بها لتأجيله، فوجدتها في غيظ شديد من التأجيل، فتراجعت عن موقفي وقلت لها إنني سأقابلها على الفور في مكتبي. وحينما حضرت بدأت تشكو من أنها تشعر بالغربة عن أمها، وكلما اقتربت منها شعرت بالبعد. وقد عرفت منها أن الأم إنسانة عادية، وأن البعد بينها وبين ابنتها ليس متعمداً من جانبها، وإنما هو نتيجة اختلاف في اللغة أو الخطاب. فالأم - كما أسلفت - إنسانة عادية، ولكن الابنة غير عادية بأي مقاييس. وأجهشت الطالبة ببكاء حار، ثم ودعتني. وحينما قابلتها في الكلية في اليوم التالي تجاهلتني تماماً، وكأنها أرادت أن تغلق هذا الملف، أو أن تخرج هذا الغريب من حياتها بعد أن كاشفته. وفي أواخر العام كانت تحييني عن بعد وبما يشبه الفتور، وقد تفهمت وضعها تماماً. ولكن الأمر الذي حيرني آنذاك (ولا يزال يحيرني حتى الآن) هو خطابها الموغل في الحداثة (الاغتراب - الذات - الآخر - فشل التواصل). ولم أقابل مثلها من قبل ولا من بعد. بطبيعة الحال هناك دائماً فجوة تفصل بين طلبتي المتميزين وآبائهم، وهذه الفجوة هي مصدر شكوى دائمة، ولكن الحدة التي اتسم بها خطاب هذه الفتاة أمر لا يزال يحيرني.

ومن المصريين الذين تعرفت عليهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأعتز بصداقتهم العائلية الدكتور أشرف البيومي وزوجته د. سهير مرسي. فكلاهما أحرز مكانة علمية مرموقة، وقد سمعت أن الدكتور أشرف كان يُعدُّ من أهم الـ spectroscopist في الولايات المتحدة. ولكنه مع هذا عاد هو وزوجته إلى مصر ليساهموا في بناء الوطن، وهما من المصريين القلائل الذين فعلوا ذلك، فالإغراءات القوية في الولايات المتحدة، والإمكانات البحثية تغوي الكثيرين بالبقاء هناك، ثم يرجعون إلينا «خبراء أجانب» نحتفل

www.scantopdf.eu

بهم ونتوج رؤوسهم بأكاليل الغار، وننسى من ضحوا وعادوا بسبب التزامهم الوطني. والدكتور أشرف وزوجته - في تصوري - شيء نادر، فهما يكونان حركة ثورية، وقوة دافعة للمجتمع، تبعث على التفاؤل، لأنه إذا كان بمقدور فردين اثنين أن يحركا الماء الآسن بهذا القدر، ويبثا الحياة في المجتمع، فإنه من الممكن، إن تضافرت الجهود، أن ننجز شيئاً وأن ننهض.

الثورة في أمريكا !

وبعد وصولي بعام إلى جامعة رتجرز التقيت بكافين رايلي، المؤرخ الأمريكي المعاصر وصاحب كتاب **الغرب والعالم : تاريخ الحضارة من خلال موضوعات** The West and the World : A Topical History of Civilization، ونشأت صداقة عميقة بيننا. كان كلانا آنذاك ماركسيّا، ولكننا كنا ماركسيين بشرطة إن صح التعبير، فقد كان عندنا مشكلات كثيرة مع التفسيرات الاختزالية المادية البسيطة، نؤمن بالإنسانية الماركسية ونهتم بدور الفكر في التاريخ. وقد بدأت في تلك الفترة تطوير رؤيتي الخاصة بنهاية التاريخ (والتي سأشرحها بإسهاب فيما بعد). لم يوافقني كافين في البداية ودخلنا في نقاش حاد، إذ إن الرأي السائد آنذاك في الأوساط الأكاديمية أن علْم التاريخ قد بدأ مع ظهور البورجوازية، فأشرت إلى أن الإحساس بالتاريخ غير علْم التاريخ، وأنه يمكن أن يكون هناك أستاذ للتاريخ في جامعة هارفارد دون أن يكون عنده أي إحساس بالتاريخ، تمامًا مثل أستاذ علم الأخلاق المنحل أخلاقيّا، وأستاذ الحكمة الذي لم ينل من الحكمة إلا أقل القليل. وكانت شكوكي بخصوص الرؤية المادية تتزايد بدرجة أكثر حدة من كافين رايلي (ربما بسبب دراستي الأدبية وبسبب دراسته التاريخية). المهم تعلمت من كافين الكثير (وكما جاء في مقدمة كتابه تعلم هو أيضًا مني الكثير)، وكانت صداقته من أكثر الصداقات إثراءً لي. وما زلت ألقاه كلما ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فأقضي على الأقل بضعة أيام معه هو وزوجته نتحدث في كل شيء : ابتداءً من بنية الطعام التايلاندي وانتهاءً بالأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة مروراً بالأبعاد المعرفية للمدن المقدَّسة في أمريكا اللاتينية قبل وصول كولومبوس. يتردد كافين في الحديث دائماً، ولكنه عنده معرفة ثرية بكل هذه الأمور، وتردده الدائم هو تردد العالم الذي يخشى أن يصدر حكمًا متسرعًا (كتب كتابه **الغرب والعالم** فيما يزيد على عشرة أعوام). ولكنه، مع هذا، صاحب عاطفة جياشة يدرك العالم بعقله وقلبه وحواسه وروحه. وقد حضر إلى القاهرة عدة مرات لقضاء بعض الوقت معي.

www.scantopdf.eu

لم يحصل كافين على درجة الدكتوراه بسبب ما أصابه من إنهاك في أثناء تأليف كتابه **الغرب والعالم**. ولكن أحد أساتذته في جامعة رتجرز سمع بالكتاب، فاستدعاه وطلب منه تقديم الفصل الأول والثاني من كتابه كرسالة للدكتوراه وحصل بناءً عليه على الدرجة (وهذا أمر غير مألوف في الولايات المتحدة نفسها). ومرة أخرى لنقارن هذا الوضع بما يحدث في مصر. حينما حصلت زوجتي على درجة الماجستير من الولايات المتحدة، قررت الحصول على الدكتوراه في التربية من مصر، بدلاً من السفر للخارج. فرُفض الاعتراف بدرجتها العلمية، وطُلب منها أن تحصل أولاً على دبلوم عام ثم دبلوم خاص في التربية ثم ماجستير ثم دكتوراه. (قررت الجامعة بعد ذلك، وبعد جهد جهيد، أن تتنازل عن الدبلوم العام وحسب بحُسبان أنه معادل للماچستير!). وقد بينت ساعتها للسيد رئيس الجامعة - وكان رحمه الله تربويّا - أن هذه العملية ستستغرق على الأقل أحد عشر عامًا، فوافق على ما أقول، ولم يجد أي غضاضة في ذلك.

ولنقارن هذا أيضًا بمحاولتي أن أحول نفسي من أستاذ أدب إنجليزي إلى أستاذ علم اجتماع (لأن التناقض بين تخصصي الأكاديمي واهتماماتي الفكرية كان آخذًا في الاتساع وكان لابد من حسمه). وعلمت أن لوائح الجامعات المصرية تسمح بذلك، شريطة أن يكون الأستاذ المتقدم عنده من المؤلفات في التخصص الجديد ما يسمح بنقله. وكنت أتصور أن بعض مؤلفاتي في الصهيونية تندرج تحت هذا التصنيف (كان كتابي **الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** يدرَّس في مقررات علم الاجتماع في بعض الجامعات العربية). ومع هذا قررت أن أحصل على ماجستير في علم الاجتماع حتى أطمئن لجنة الترقية إلى أنني لست دخيلاً ولا أنوي اختراق الصفوف بل أحاول الانضمام. واختصاراً للوقت ذهبت إلى الجامعة الأمريكية وسجلت لدرجة الماجستير في قسم الاجتماع ودرست المقررات المطلوبة ولم يبق سوى الامتحان النهائي الشامل. حينذاك، قابلت أحد أعضاء لجنة الترقية لرتبة أستاذ في علم الاجتماع فأخبرني بأن الأمر الذي أحاول إنجازه مستحيل وأن اللجنة لن توافق على تحويلي مهما فعلت، لأن هذا يعني أنني أبدأ من القمة وهذا ما لا تسمح به البيروقراطية في مصر، بلد الأهرامات القديمة والراسخة. فتوقفت عن محاولتي المحكوم عليها سلفًا بالفشل، وقررت أن أحسم التناقض بالاستقالة تمامًا من الجامعة حينما يحين الوقت.

www.scantopdf.eu

ويتناول كتاب **الغرب والعالم** (الذي كتبه كاڤين رايلي) تاريخ الحضارة لا بطريقة السرد التاريخي المألوف وإنما من خلال موضوعات وإشكاليات ومن خلال رؤية مركبة (نماذج تحليلية مركبة) لا ترد عالم التاريخ والإنسان إلى عالم المادة والطبيعة ولا تعطي أي مركزية للحضارة الغربية، وإنما تقدم رؤية عالمية حقة يتنقل صاحبها بسهولة ويسر من المدينة إلى القرية، ومن الحاضر إلى المستقبل، ومن عالم الآلة إلى عالم الفن (وقد قمت بترجمة الكتاب إلى العربية أنا وزوجتي الدكتورة هدى حجازي ونُشر في سلسلة عالم المعرفة بالكويت).

وقد عاصرت أنا وكافين فترة الستينيات في الولايات المتحدة (حينما كان الشباب الأمريكي في حالة ثورة ضد المجتمع الأمريكي بإمبرياليته واستهلاكيته). وكنت نشيطًا في حركة الشباب اليساري في الولايات المتحدة آنذاك (في الواقع كنت مستشاراً لشئون الشرق الأوسط لأحد مرشحي الرئاسة الأمريكية يسمى بول بوتيل Paul Boutelle، وهو زنجي أمريكي عضو في حزب تروتسكي يسمى حزب العمال الاشتراكي [بالإنجليزية: سوشيالست وركرز بارتي Socialist Workers Party]. لم يسمع سوى قلة قليلة بهذا الحزب، أما مرشحه للرئاسة فلم يسمع به أحد قبل الحملة الانتخابية أو في أثنائها أو بعدها، اللهم إلا لمدة نصف ساعة في إحدى محطات الإذاعة والتليفزيون التي كانت مضطرة بحكم القانون أن تخصص له هذا الوقت).

كانت إدارة الجامعات الأمريكية آنذاك في حالة هلع وخوف شديدين. وفي هذا الإطار، قررت أن أقوم بثورة لرفع الأجور، فطلبت من سكرتيرة القسم أن تطبع المنشور رقم (١) وتوزعه على كل الأساتذة والطلبة. (بدأ المنشور بعبارة شهيرة من قصة ملفيل القصيرة «بارتلبي: الكاتب Bartleby : The Scrivner» «لأنني أفضل ألا أفعل Because I prefer not to» وبيَّنت في المنشور أن المعيدين في قسم اللغة الإنجليزية يتم استغلالهم بدرجة تفوق الاستغلال الواقع على المعيدين في الأقسام الأخرى. إذ إننا نقوم بالتدريس وتصحيح أوراق الطلبة وغيرها من المهام مما يجعل وظيفة المعيد ليست مجرد مساعد باحث أو مساعد مدرس، بل موظفًا طول الوقت. وطالبت إما بمضاعفة المرتب وإما بتخفيض ساعات العمل. وعُقد اجتماع بناءً على منشوري، حضره جميع المعيدين واتخذ القرار بالمطالبة بخفض ساعات العمل إلى النصف. وأبلغ مدير الجامعة بالقرار فوافق على الفور. ولعل هذه هي أول (وآخر) مرة في التاريخ تتحقق فيها الثورة من خلال منشور واحد تكتبه سكرتيرة تعمل لدى «المؤسسة الحاكمة».

www.scantopdf.eu

في هذا الجو الملتهب قررنا أنا وكافين أن نؤسس منتدى فكريّا ماركسيّا، فذهبت إلى إدارة الجامعة وطلبت مقابلة عميد الطلبة بوصفه المسئول، وأخبرته بدون أي مواربة بما أريد. وبدلاً من مواجهة حادة بين البورجوازية (ممثلة في شخص العميد) من جهة، والطلاب والقوى الثورية (ممثلين في شخصي المتواضع) من جهة أخرى، ابتسم العميد ابتسامة ليبرالية عريضة، وقال: «مستر المسيري نشكرك على اقتراحك، فنحن في أمس الحاجة إلى حزب ماركسي في هذه الجامعة، إذ لا يصح أن توجد جامعة محترمة دون مثل هذا الحزب». (أُصبت بالإحباط والغيظ الشديدين. فوت علينا هذا اللعين الفرصة، وبدلاً من أن نسجل لحظة مواجهة تاريخية ساخنة بين القوى الصاعدة «نحن»، والقوى الهابطة «هم»، ها نحن أولاء نتفاوض بمودة بالغة). وببرود شديد، سألني بأدب جم عن اليوم الذي سيجتمع فيه السوشيالست فورام Socialist Forum أي المنتدى الاشتراكي، وحدد لي المكان. وتم الإعلان عن الزمان والمكان في جريدة الجامعة رتجرز تارجوم Rut-gers Targum. وكانت أول محاضرة (بعد يونيه سنة ١٩٦٧) عنوانها «اشتراكي عربي يتحدث عن الصراع العربي الإسرائيلي» حضرها المئات، وكانت حدثًا في الجامعة بسبب جدة الخطاب واختلافه عن الخطاب العربي السائد آنذاك والغارق في فكر المؤامرة (الأمر الذي سأوضحه فيما بعد).

ثم بدأنا بعد ذلك في المنتدى الاشتراكي سلسلة محاضرات أسبوعية كانت تدور حول موضوعات مختلفة، ونجحت في أن أجعل من إسرائيل موضوعًا أساسيّا في كل المحاضرات بغض النظر عن الموضوع المعلن للمحاضرة. فمن الممكن أن يكون الموضوع هو علاقة الأدب بالواقع أو نظام القمع في جنوب إفريقيا ولكني كنت دائمًا أوجه النقاش نحو إسرائيل. وكانت تجربة مثيرة حقّا، أتاحت لي فرصة الاحتكاك بمختلف الحركات الثورية. وتعرفت ساعتها إلى ستوكلي كارمايكل Stokley Charmaechel وغيره من الزعماء السود الأمريكيين، ودعوناهم لإلقاء محاضرات عندنا. وكنا نحيي الذكرى السنوية لاغتيال مالكولم إكس Malcolm X (الذي كنت قد تعرفت إليه لفترة قصيرة جدّا قبل اغتياله)، كما دعتنا منظمة الطلبة السود الأمريكيين ومنظمة الطلبة الإفريقيين لحضور اجتماعاتهما.

كان جو الجامعات الأمريكية مختلفًا تمامًا عما هو عليه الآن. حينما سألت، في السبعينيات، عما حدث لمجموعة المنتدى الاشتراكي الذي كنت أتشرف برئاسته وكان

www.scantopdf.eu

كافين رايلي هو وكيله (والعضو المنتظم الوحيد فيه)، وجدت ما يلي (الأسماء غير حقيقيةوأن كانت قريبة من الأصل): ديفيد جرينبرج، الذي كان يتناول حبوبًا مهدئة بشكل غير عادي، حاول أن يقتل زوجته ثم انتحر. ريتشارد فريدمان، التروتسكي المتطرف، تخصص في التحليل النفسي وبالذات في فيلهم رايخ Wilhelm Reich الذي طور جهازاً يُسمَّى علب الأورجون لاصطياد الأشعة الكونية المعنية بالطاقة الجنسية لمساعدة الفرد على القذف بمفرده. قطع كل علاقاته مع ماضيه، بما في ذلك رفاقه في السلاح والكفاح أمثالي أنا وكافين. جون سواتسكي بدأ في تهريب المخدرات بين المكسيك والولايات المتحدة وقُبض عليه وأُودع السجن. أما سارة ستاينبرج، زوجة طبيب الأسنان الذي كان يحارب في فيتنام والتي كانت تكره حياتها البورجوازية معه، فقد طلقته وأحبت شابّا شاذّا جنسيّا من النوع الصادي مازوخي. لم يبادلها الحب بل كان يستغلها. طاردته حتى سان فرانسيسكو وحاولت أن تعيش معه دون جدوى، لأسباب بدهية واضحة. حلت مشكلتها في نهاية الأمر بأن أصبحت عضواً في جماعة الوذرمن Weathermen اليسارية الإرهابية. أما داني Danny فقد تهود تمامًا وأطلق لحيته وانغمس في العبادة، ولكن ماضيه الثوري جعله يدرك حقيقة إسرائيل فامتنع من تأييدها. وحينما زرته في كاليفورنيا، كان قد طلق زوجته المسيحية تيرينا (التي أصبحت أصولية مسيحية متطرفة) وتزوج من زوجة يهودية بورجوازية هادئة تمامًا. كان يعبّر عن كراهيته لكل ما هو مسيحي بطريقة أفزعتني (كان يعلق صورة المسيح في دورة المياه !). أما فريدريك ميللر فقد ظل مخلصًا لماركسيته بعض الوقت، ثم بدأ يصبح أحد مفكري اليمين الجديد في الولايات المتحدة، الذين يرون أن القيمة مسألة أساسية وأن النسبية الكاملة لا تصلح لتأسيس مجتمع، ولذا فهم يرون أن للدين دوراً (ومع هذا يؤمنون تمامًا بالاقتصاد الحر الذي يقوض القيم وينشر النسبية الأخلاقية والفلسفية). وكان هناك آخرون ممن حصلوا على الدكتوراه وانتظموا في السلك الجامعي أو أصبحوا جنوداً مستأنسين في هذا الجيش الضخم من المهنيين المنمطين المدجنين من أعضاء الطبقة المتوسطة العالية في الولايات المتحدة ممن يقضون حياتهم في محاولة تحقيق الحلم الأمريكي : بيت وزوجة وسيارة وطفلان وكلب ومستوى معيشي مرتفع ومستوى أعلى من الملل واللامعنى واللامعيارية، أو محاولة جاهدة للوصول إلى المعنى عن طريق الانتظام في كنيسة أو عبادة جديدة أو الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك وزيارة المتاحف وتذوق أفخر الأطعمة .

www.scantopdf.eu

ولكن حتى لا يتصور أحد أن الحريات بالفعل «مطلقة» في الولايات المتحدة، عليَّ أن أذكر واقعة أخرى. كان هناك في نفس الفترة أستاذ يساري في الجامعة، كان يأخذ موقفًا معاديًا لحرب فيتنام. ولم يكن من الممكن للجامعة أن تطرده بسبب أفكاره. فقام مجلس الولاية بتقليص ميزانية الجامعة (وجامعة رتجرز جامعة تابعة لحكومة الولاية)، ثم سربت رسالة إلى أعضاء هيئة التدريس مفادها أن تقليص الميزانية سببه هو وجود هذا الأستاذ اليساري في الجامعة، فبدأ الأساتذة أنفسهم بالضغط عليه حتى يترك الجامعة، فرفض في بداية الأمر، ولكن بعد قليل أصبح الأمر لا يمكن تحمله، فاضطر للاستقالة.

والديموقراطية الأمريكية محكومة تمامًا من خلال ما يسمَّى بمؤسسة (أو آلة) الحزب (بالإنجليزية : بارتي ماشين party machine). وأكبر دليل على هذا فشل مرشح أي حزب ثالث (خارج الحزبين اللذين يتناوبان الحكم) في أن يحصل على عدد من الأصوات له وزنه. وقد عرف أحد أصدقائي من المهاجرين المصريين هذه الحقيقة، فاستثمرها لصالحه تمامًا. فبعد أن هاجر صديقي هذا إلى أمريكا انضم إلى الحزب الديموقراطي، واشتغل في عالم العقارات، وبعد أن حقق ثروة صغيرة بدأ في إعطاء المعونات لحزبه. وكان صديقنا لا يكن أي احترام للنظام ولذا كان يحسن استغلاله. أذكر مرة أنه دعانا لطعام عشاء عقد لصالح أحد مرشحي الحزب للكونجرس، وبينما كان المرشح يتحدث ويعلن عن برنامجه أعطى صديقي له ظهره وبدأ يتحدث معنا. وحينما أخبرته أن هذا لا يليق، ضحك وأخبرني أنه يعرف ثمن كل واحد منهم. المهم انتهى الأمر بصديقنا هذا إلى أن حصل (من خلال آلة الحزب) على عدة ملايين من الدولارات بفائدة صغيرة للغاية كقرض من الحكومة الأمريكية ليساعد في إحياء مراكز المدن الصغيرة. وأصبح من أكبر الأثرياء، ويمتلك أحد المصارف، وكل هذا بفضل ذكائه السياسي وإدراكه لآليات التسلق والنجاح.

العودة لمصر والذئاب الثلاثة

حينما عدت إلى مصر من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ بعد حصولي على الدكتوراه، كنت ممتلئًا ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه وإقامة العدل في الأرض. كما كان عندي مشروعي الواضح : أن أصبح ناقداً أدبيّا يربط الأدب بتاريخ الفكر وتاريخ الفكر بالتطور الاقتصادي في المجتمع، ويحاول أن يحل معضلة علاقة البناء التحتي (الاقتصادي) بالبناء

www.scantopdf.eu

الفوقي (الفكري والأيديولوجي)، وأن يحاول الإجابة عن السؤال التالي: كيف تعبِّر الأفكار في خصوصيتها وتركيبيتها وذاتيتها عن البناء التحتي في عموميته المادية ووجوده الموضوعي، وكيف يمكن أن نقفز من الواحد إلى الآخر؟ (وهي إشكالية مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج كأداة تحليلية وبإشكالية علاقة الإنسان بالمادة). وقد عبَّر جان بول سارتر Jean Paul Sartre عن القضية نفسها بطريقة أبسط وأكثر مباشرة حين قال: إذا كان بول فاليري Paul Valerie بورجوازيّا صغيراً، فلمَ لَم يصبح كل البورجوازيين الصغار بول فاليري؟ فمشروعي الأدبي كان مشروعًا فكريّا بالدرجة الأولى. (ولذا فالتحول من دراسة الأدب إلى دراسة الصهيونية - كما سأبين لاحقًا - لم يكن تحولاً جذريّا كما قد يتراءى للبعض، إذ إنني حين بدأت في دراسة الصهيونية حملت معي إشكالياتي النظرية والمنهجية، والموضوعات الأساسية في فكري مثل نهاية التاريخ وفكرة الخصوصية).

وعند عودتي إلى مصر، حاولت قدر استطاعتي أن أندمج في المجتمع، أي أن أعود له بالمعنى الأخلاقي والحضاري، لا بالمعنى المادي وحسب. فكنت أحاول تحاشي الحديث باللغة الإنجليزية قدر استطاعتي خارج منزلي (أما في المنزل، فكنا نحاول التحدث بالإنجليزية حتى لا تتحول إلى لغة ميتة وحتى أحتفظ بلياقتي اللغوية كأستاذ للأدب الإنجليزي). وكنت أدخن البايب، فقررت استبعاده من حياتي (أما السيجار فأنا لا أدخنه إلا نادراً، ولذا فهو لا يشكل مشكلة أو أدخنه في شرفتي مع زوجتي أو مع من أحب). وكنت أحب ارتداء الشورت في الصيف، ولكنني أردت أن أعرف استجابة المجتمع لهذه العادة، فلبست الشورت يومًا وسرت في السوق، وطلبت من أحد العاملين في منزلي أن يسير على مقربة مني، ويخبرني بانطباعات الناس، أي أنني قمت «بدراسة ميدانية على الطبيعة لاستجابة المصريين العاديين للشورت»، كنت أنا فيها الملاحظ والملاحَظ. وحسب تقريره لم تكن الانطباعات إيجابية، ولذا قررت ألا ألبس الشوررتَ إلا في منزلي.

ولكن التكيف مع المجتمع على هذا المستوى كان من أسهل الأمور، إذ كان هناك معركة أخرى دارت في داخلي، فقد هاجمتني ثلاثة ذئاب شرسة (هكذا أسميها) ظلت تنهشني بعض الوقت: ذئب الثروة وذئب الشهرة والذئب الهيجلي المعلوماتي. أما الذئب الأول فهو ذئب براني تمامًا، وهو ذئب الثروة الذي يعبِّر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أكون ثريّا. فقد أتيت من عائلة تجارية، مصدر الشرعية فيها هو الثروة، ومن هنا إن لم

www.scantopdf.eu

يحققها المرء، انتابته المخاوف واهتزت ثقته بنفسه. ولكن كان من السهل علي أن أتغلب على هذا الذئب، وأن أقرر أن مشروعي لمستقبلي ربما لا يأتي بالثروة ولكنه سيأتي بالحكمة، وأن أسلوب حياتي بما فيه من آفاق ثقافية واسعة وعلاقات إنسانية دافئة أفضل بكثير من حياة التراكم الرأسمالي بما فيها من أحادية وتنافس (ولعل هذا جزء من ميراث أمي ومجتمع دمنهور التراحمي).

ومما ساعدني على اتخاذ قراري أنني لاحظت أن أبناء الأسرة حينما كانوا يحضرون إلى منزلنا كانوا يرفضون العودة إلى منازلهم، إذ كانوا يسعدون كثيراً بأسلوب حياتنا. فقد كنا نأخذهم إلى الحدائق القليلة المتبقية في القاهرة (حديقة الأورمان - حديقة الأندلس - القناطر الخيرية) ونذهب إلى المتاحف المختلفة (متحف السكة الحديد - متحف البريد - متحف العربات الملكية - متحف في أرض المعارض [أرض الأوبرا الآن] أظنه متحف الحضارة المصرية وملحق به قبة سماوية - المتحف الزراعي - المتحف الإسلامي - الأنتكخانة - المتحف القبطي - متحف الفن الحديث). كما كنا نزور آثار القاهرة الكثيرة الإسلامية والفرعونية والقبطية، غير الرحلات الشراعية في النيل. فأسلوب حياتنا كان يشعرهم بالامتلاء، ويشعرني في الوقت ذاته بأن ذئب الثروة لا يمكنه أن يمنحني كل هذه الأشياء. وقد ذكرني هذا بواقعة حدثت لأستاذي في الولايات المتحدة، فقد كتب سيناريو لفيلم (قال لي إنه أساسًا عني) وذهب لهوليود لتسويقه، وقد بدأ في تحقيق بعض النجاح. وفي أحد الأيام كان في منزل أحد كبار المخرجين في حفلة كوكتيل ليقابل أحد وكلاء الفنانين ليعرض عليه فيلمه. وفي أثناء الحديث اكتشف أستاذي أن هذا الوكيل لم يكن قد سمع قط عن أرسطو، ففزع أستاذي، وأنهى زيارته لأنه كما قال «لم يتخيل أنه سيقضي بقية حياته مع بشر من هذا النوع». هذه القصة ترسخت في وجداني وساعدتني على هزيمة ذئب الثروة. وأصبح هدفي هو أن أحقق ذاتي حسب الشروط التي تمليها رؤيتي لذاتي، وأن أحصل من المال على ما يكفي لأن يحقق لي شيئًا من التحرر من تفاصيل حياتي اليومية ولأن أمول حياتي الفكرية وأنجز مشروعي المعرفي. ولذا أردد دائمًا أن المال يشكل عبئًا على البعض، يفنون حياتهم في جمعه، أما بالنسبة لي فالمال حرية.

وقد نجحت إلى حدٍّ كبير في توظيف المال بدلاً من أن يوظفني. فلم أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعي الفكري أو يعوقه، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته. فكنت أقوم بإلقاء محاضراتي في كلية البنات ولم أزد (إلا محاضرتين

www.scantopdf.eu

إضافيتين أو أربعًا كنت أقبل تدريسها منتدبًافي كلية الأداب حتى أخرج من نطاق كلية البنات). وقد نجحت في أن تكون هذه المحاضرات جزءاً من حواري الفلسفي مع نفسي، أي جزءاً من مشروعي المعرفي. وقد اخترت محل إقامتي عبر الشارع من كلية البنات بحيث لا أضيع أي وقت في الانتقال، ولم أشغل قط أي منصب إداري من أي نوع طيلة حياتي، فلم أعمل رئيسًا للجنة أو لقسم أو وكيلاً أو عميداً لكلية. وقد عملت مستشاراً ثقافيّا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، ولكن وظيفتي مرة أخرى أصبحت مجرد إطار لتحقيق مشروعي المعرفي (بداية تحديث موسوعة ١٩٧٥). وحينما عرض عليّ أن أعمل في هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم، آثرت البقاء في وظيفتي والتضحية بالراتب الضخم لأن الوظيفة الجديدة كانت ستستوعب كل وقتي، كما أنها كانت تتعارض كليةً مع مشروعي الفكري.

هذا لا يعني أنني لم أعرف شظف العيش. فحينما ذهبنا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ اضطررنا - كما أسلفت - إلى أن نعيش أنا وزوجتي في فندق رخيص قذر. وفي الشتاء اضطررنا إلى شراء معاطف مستعملة لاتقاء برد نيويورك، فلم يكن معنا ثمن المعاطف الجديدة. وحينما انتقلنا إلى جامعة رتجرز كنا نضطر للسير مسافات طويلة في البرد القارس، بل في الثلج، للوصول إلى الأتوبيس (فلم يكن معنا ثمن السيارة). وقد اضطرت زوجتي إلى أن تعمل لتقدم لنا بعض العون المالي. كما اضطرت إلى أن تعود من المستشفى بعد أن وضعت نور بأربعة أيام في مترو الأنفاق في نيويورك (وكان طريقة للمواصلات متوحشة في الستينيات). كما أنها كانت تحمل ابنتنا في المواصلات العامة وتذهب بها من نيوجرسي إلى نيويورك للتمتع بالخدمة الطبية المجانية بعد الولادة.

ولم أترفع قط عن القيام بأي عمل، ولم أمانع على سبيل المثال في أن أعمل عضواً في فرقة مكافحة الحريق بمصنع الكابلات في نيو برونزويك. وقد استأجرنا هذا المصنع لا لمكافحة الحريق وإنما ليخبر شركة التأمين بذلك، لتخفيض أقساط التأمين. فالعمل الذي أوكل لنا لم يكن عملاً حقيقيّا ولا يستنفد أي وقت، فقد كان يتلخص في أن نمر على المصنع كل ساعة، ثم نكتب في كراس عبارة «كل شيء على ما يرام». وكانت هذه العملية تستغرق حوالي خمس دقائق. أما بقية وقتنا فكنا نقضيه في القراءة والكتابة يومي السبت والأحد، حينما يكون المصنع مغلقًا، ونربح فيه بضعة دولارات ننفقها في المتاحف والمسارح. وقد رقيت إلى أن أصبحت رئيسًا للفرقة. فاستأجرت كل أصدقائي من طلبة

www.scantopdf.eu

الدكتوراه ليعملوا أعضاء فيها، وكان من بينهم كافين رايلي بطبيعة الحال. وكان مدير المصنع يتباهى بأن فرقة مكافحة الحريق في مصنعه تتمتع بأعلى مستوى تعليمي في العالم، وكان محقّا في تباهيه هذا.

ولم يكن الأمر يخلو من مصاعب. فمرة ألقيت محاضرة في ذكرى مالكولم إكس في الجامعة، فنشرتها الصحف المحلية وذكرت اسمي. فاستوقفني مدير المصنع (وكان رجلاً رجعيّا من ولاية تكساس) وسألني: «ألست أنت الشخص الذي كان يثير القلاقل في الجامعة بالأمس؟» ومثل هذه التهمة كفيلة بإقصائي عن منصبي المريح المربح. فأنكرت بطبيعة الحال. فسألني عن اسمي، فهداني الله إلى أن أخبره عن اسمي الرباعي وبمخارج الحروف العربية وبسرعة، فاضطرب الرجل وفقد اتزانه، وقال إنه لابد أن يكون شخصًا آخر.

ومما ساعد على ترويض ذئب الثروة بل تدجينه تمامًا، أن زوجتي، لحسن الحظ، لم تراودها أحلام الثروة ولم تعان من أي نزعات استهلاكية. (من الأمور المضحكة، أنها مصابة بحساسية من نوع فريد، إذ يصفر وجهها وتعطس حينما تمكث مدة طويلة داخل أحد المحلات، وهي حساسية يحسدني عليها كثير من الأزواج المصريين. واقترح علىَّ أحدهم أن أقرضه الفايروس العظيم الذي يتسبب في هذه الحساسية المباركة). اكتشفنا، على سبيل المثال، حينما انتهيت من **الموسوعة** أننا لم نتناقش قط فيما كنت أدفعه من تكاليف. كما أنني حين قررت الاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة، وافقت على قراري بعد مناقشة دامت خمس دقائق، برغم ما كان يعنيه ذلك من أن الأسرة ستصبح دون دخل ثابت. وبعد حرب الخليج، حينما أصبح من «حقي» العودة لوظيفتي (باعتبار أنني كنت أعمل في الخليج) ناقشنا الأمر لبضع دقائق أخرى ووجدت أنه لابد من الاستمرار في التفرغ لأنهي الموسوعة (وأسمي هذا ضربًا من الجنون المقدس الذي أصابني وأصاب زوجتي، ولولاه ما انتهيت من الموسوعة). ولم يكن من الصعب أن تقنع زوجتي طفلينا برؤيتها غير الاستهلاكية. ولعل تحييد النقود بهذه الطريقة قد جعلني أتفرغ ذهنيّا للبحث والتأمل، إذ لم أعد مشغولاً بأمور الدنيا المباشرة.

وقد هزمت ذئب الثروة تمامًا إلى درجة أن «حمل» الإحساس بالذنب من الثروة قد أمسك بتلابيبي بعض الوقت. فبرغم حدودي المالية، فإنني بدأت أشعر بالذنب من أجل

www.scantopdf.eu

أصدقائي الذين دخلوا طاحونة المحاضرات الإضافية لتحسين دخلهم. وكان الإحساس بالذنب قويّا إلى درجة أنني لم أتمكن من أن أخط حرفًا واحداً لمدة عام تقريبًا. ولم يشفني من هذا «الحمل» إلا اكتشافي أن هناك من أقراني من هم أكثر مني ثروة، ومع هذا يتكالبون على المال بشكل مقزز ولا يخطون حرفًا. حينئذ اكتشفت أن التأليف والثروة أمران منفصلان، وأن الثروة قد تكون عنصراً مهمّا ولكنه لاً يؤدي بالضرورة إلى التأليف. وعلى كلٍّ ظل حمل العداء للثروة معي بعض الوقت، وكنت أموِّل كل أعمالي الفكرية تقريبًا، والعائد المالي لمثل هذه الأعمال، كما هو معروف، ضئيل للغاية. وكما قال أحد الناشرين لصديق أفنى عمره في إعداد موسوعة عن الموسيقى، قال له وهو يعرض عليه ألف جنيه لا أكثر ولا أقل: «لكم المجد ولنا الثروة»!

أما الذئب الثاني، فهو أقل بَرَّانية ومادية، وهو ذئب الشهرة الذي يعبِّر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أصبح من المشاهير. وحينما عدت للمرة الأولى من الولايات المتحدة الأمريكية لم أواجه ذئب الشهرة، إذ إنني وجدت نفسي أكتب في الأهرام وأتحدث في الإذاعة والتليفزيون ومسئولاً عن وحدة الفكر الصهيوني في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية. وأصبحت أحد كتَّاب الأهرام المنتظمين، وكل ما كنت أكتبه كان يجد طريقه للنشر في إحدى المجلات، وكلما شُكلت لجنة ما (مثل لجنة إصلاح تدريس اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، أو حتى إصلاح العالم)، كنت أجد نفسي عضواً فيها؛ وإذا عُقد مؤتمر لمناقشة الكتب الدراسية في الأرض المحتلة أو لأي موضوع آخر، كنت أُدعى له. ولذا كان عليّ، في كثير من الأحيان، أن أرفض التعيين في بعض هذه اللجان أو الذهاب لبعض هذه المؤتمرات (إن كانت لاتصب في مشروعي المعرفي). ولذا فذئب الشهرة داخلي كان منتشياً، نائماً سكران من النشوة.

ولكنه استيقظ وبكل ضراوة عام ١٩٧٩ حينما عدت للمرة الثانية من الولايات المتحدة الأمريكية. وكان جو التطبيع سائداً في القاهرة، وبطبيعة الحال لم أسترد مكاني في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام (وكما قال لي مدير المركز آنذاك إن عودتي له تعني القيام بالهارا كيري [أي الانتحار على الطريقة اليابانية]. فكان ردي عليه أن الحياة حسب الشروط المهينة التي قد يضعها الآخرون ليست أمراً عظيماً على أي حال، وقد يكون الانتحار هو أحسن اختيار. والانتحار في هذه الحالة ليس انتحاراً وإنما استشهاد في سبيل رسالة). وبطبيعة الحال لم أُدع للحديث في الإذاعة والتليفزيون، وبدأ بعض

www.scantopdf.eu

المذيعين، ممن كنت ضيفًا دائمًا على برامجهم، يخافون حتى من الحديث معي. بل إنني كنت أجد صعوبة بالغة في دخول مبنى الأهرام، وكان عليّ الاتصال بمساعدتي السابقة للتوسط لي. باختصار شديد، وجدت نفسي نكرة، ومن ثم بدأ جوع ذئب الشهرة ونهمه يتزايدان. وقد أخذ رد فعلي بهذه الصدمة الحضارية شكلاً فريداً، إذ بدأت في الاهتمام بالعمارة الداخلية لمنزلي، وبدأت في اقتناء الأشياء القديمة، إلى درجة الهوس. ثم دارت المعركة بيني وبين هذا الذئب. فجلست مع نفسي لأكتشف أنني أحب الشهرة نعم، ولكن رغبتي في الشهرة نابعة من رغبتي في حماية نفسي حتى يمكنني الانتهاء من مشروعاتي المعرفية. والمشاهير، كما كنت أظن واهمًا آنذاك، لا يمكن أن يزج بهم في السجن ببساطة. كما أن الشهرة ستكون وسيلة ناجعة لإشاعة وتوصيل ما عندي من أفكار أعتقد أن لها قيمة ما. ولذا إن حاولت أن أشبع ذئب الشهرة داخلي حسب الشروط التي يفرضها العالم الخارجي، فأكون كمن كسب المعركة وفَقَد الحرب. وويل للمرء الذي يربح كل شيء ويخسر نفسه. حينئذ أخبرت ذئب الشهرة داخلي أنني لا أمانع في الشهرة حسب شروطي، تمامًا كما أنني أحب الثروة بمقدار ما تخدمني. وهكذا صرعت ذئب الشهرة داخلي، وقبلت أن أعيش بعيداً عن الأضواء، خاصةً حين بدأت في كتابة **الموسوعة** بما كانت تتطلبه من عزلة شبه كاملة أحيانًا.

بقي بعد ذلك أهم الذئاب وأكثرها خطورة وضراوة وجوانية، وهو الذئب الهيجلي المعلوماتي، وهو ذئب خاص جدًا، جواني لأقصى درجة، يعبِّر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أكتب كتابًا نظريًا، إطاره النظري واسع وشامل للغاية ولكنه في الوقت نفسه يتعامل مع أكبر قدر ممكن من المعلومات والتفاصيل، إن لم يكن كلها. أي أنني كنت أطمع في كتابة عمل يصل إلى أعلى مستويات التعميم والتجريد والشمول، وفي الوقت نفسه تصل إلى أقصى درجات التخصيص والدقة. وهذه صيغة مستحيلة لأنه إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، فما بالك برؤية بانورامية متسعة في غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة في غاية الدقة. ويبدو أن هذا الذئب الهيجلي المعلوماتي كان يطاردني منذ طفولتي، فقد كنت أنوي أن أحصر كل ما تبقى من كتب لم أقرأها في مكتبة البلدية بدمنهور (بحُسبان أنها تحوي كل المعرفة الإنسانية) حتى يمكنني أن أعرف كل ما خطته يد البشرية! وأذكر في شبابي أنني بدأت في كتابة تاريخ الشعر الإنجليزي منذ البداية حتى النهاية من منظور ماركسي. أقول «بدأت» لأنني لم أنته منه قط، بل لم أجاوز الصفحة الثالثة! وقد أصبت

www.scantopdf.eu

بصدمة عميقة، في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية، حين عرفت أن أحد أساتذتي لم يكن قد قرأ الأعمال الكاملة لشكسبير ! وحين بدأت كتابة رسالتي للماجستير مع الدكتور محمد مصطفى بدوي عن أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي وبودلير على جماعة أبوللو وبخاصة إبراهيم ناجي، ظهرت نزعتي الهيجلية المعلوماتية بشراسة، فكنت أريد أن أقرأ كل شيء كمقدمة لكتابة الماجستير. فقرأت المعلقات وكثيراً من عيون الشعر العربي، وبخاصة شعر المتنبي، وكتبت دراسة عن الانقطاع في الشعر العربي. ثم قرأت كثيراً من الأعمال النقدية للعقاد والمازني وطه حسين وإبراهيم المصري، وكتبت دراسة مطولة في الموضوع، وقرأت بعض عيون التراث آنذاك. وبدأت في كتابة دراسة في شعر خليل مطران، وأنهيت دراسة عن ترجمة ناجي لديوان أزهار الشر لبودلير وأثرها عليه. كما كتبت الدراسة التي قدمتها لبروفسير إيان چاك عن «الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية». وكان الدكتور بدوي يتركني أكتب ما أريد، ولم ينقذني مؤقتًا من براثن الذئب سوى ذهابي إلى الولايات المتحدة.

وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائي أمام ناظري، مات بعضهم دون أن ينبس ببنت شفة، رغبةً منه في أن يحقق هذه الصيغة المستحيلة : عمل نظري شامل مجرد ينتظم كل المعلومات الممكنة. ولعل صديقي الأستاذ علي زيد - رحمه الله - مثل فريد على ذلك. كان - رحمه الله - يعرف كل شيء تقريبًا، ولا يعرفه كمعلومة، وإنما في إطار نظري شامل كان يزداد اتساعًا على مر الأيام. كما أنه كان يعرف الكثير من اللغات الأوربية (الإنجليزية - الفرنسية - الإسبانية - الإيطالية) وكان تملكه لناصية اللغة العربية شيئًا مذهلاً. كنت كلما أطلب منه كتابة مقالة يجلس ليتحدث عن موضوعها ساعات طوالاً، ويأتي بأطروحات مذهلة. ثم يذهب لكتابة المقال، فيأتي بعشرات الكتب ويبدأ في البحث وتتسع الرؤى إلى ما لا نهاية، فيلتهمه الذئب. وهذه إشكالية لا يواجهها متوسطو الذكاء، فبعضهم يحشد التعميمات التي لا يربطها رابط (أسميها «أفكاراً» في مقابل الفكر)، والبعض الآخر يحشد المعلومات التي لا يربطها رابط أيضًا. وأمثال هؤلاء يخطون بضعة كتب («ويرص كلامًا فوق كلام تحت كلام» على رأي صلاح عبد الصبور) تُنشر مع مئات الكتب الأخرى التى تصدر ويقرؤها البعض ثم تموت. وهم يعيشون حياتهم في سعادة بالغة ورضا تام ! لكن أن يحاول المرء الجمع بين أعلى مستويات التعميم وأدنى مستويات التخصيص فهذا مستحيل، والمصير هو الفشل النبيل والصمت الدائم.

www.scantopdf.eu

استمر الذئب الهيجلي المعلوماتي متربصًا بي، وإن كان والحق يقال قد تم ترويضه قليلاً في الولايات المتحدة حيث كان عليّ أن أكتب أبحاثًا قصيرة لمقررات الدراسة العليا تقدم في نهاية كل فصل دراسي، تعلمت من خلالها أنني لابد أن أكبح جماح ذاتي وإلا لما انتهيت من شيء. كما أن أستاذي المشرف على رسالة الدكتوراه كان لا يسمح لي بالانطلاق في أي اتجاه. فبعد أن كتبت دراسة مطولة عن وردزورث وويتمان وأصولهما التاريخية والدينية والفكرية، أخبرني أن هذه «الخلفية» لا علاقة لها بالرسالة ذاتها، وانني بوسعي أن أقرأ ما يحلو لي بخصوص «الخلفية»، طالما أن ما أقرأ له علاقة بموضوعي الأساسي (الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ)، ولكن على ألا أكتب سوى النزر اليسير عن هذه الخلفية، لأنها ليست موضوع اختصاصي. كما أنني لاحظت أنني لو قرأت كل ما كتب عن موضوع تخصصي (من مقالات ورسائل دكتوراه وكتب) لقضيت سحابة أيامي أقرأ وأستوعب وأقرأ دون أن أنتج شيئا.

ويظهر ترويض الذئب الهيجلي المعلوماتي في النصيحة التي أسديتها لصديقي كافين رايلي. فقد كان يكتب كتابه **الغرب والعالم**، والذي استغرق معظم حياته الفكرية، وكان لا يكف عن الإضافة والتعديل ولا يجرؤ على نشره. فأخبرته: «كافين، يحين وقت في حياة الإنسان، يكون الكتاب الوحيد الذي يستحق القراءة هو الكتاب الذي يؤلفه». وهي عبارة تهدف إلى أن أبين له أن المعرفة لا حدود لها وأن المعلومات بحر يمكن أن يبتلع المرء، ومن هنا يجب أن يتوقف المرء عند نقطة ما. وقد كان، إذ توقف كافين ونشر كتابه، وحقق نجاحًا كبيراً وذيوعًا منقطع النظير.

وفي هذه الآونة، قرأت قصة قصيرة لكاتب أمريكي (اسمه ألان سيجر Allan Seager) بعنوان «عن هذه المدينة وسلامنكا This Town and Salamanca» وتدور أحداث القصة حول رهط من الشباب ينشئون في نفس المدينة، ولكن أحدهم كان بوهيميّا، لا يتردد في الانتقال من بلده إلى مدن وموانئ بعيدة (سلامنكا هنا هي رمز هذا العالم البعيد الذي يرتاده صاحبنا). وكان صاحبنا يعود من آونة لأخرى ليقص على رفاقه قصص المغامرات المختلفة التي خاضها. أما هم فيبقون في مدينتهم ليعلموا أبناءها وليبنوا بيوتًا وجسوراً. وتدعونا القصة للإعجاب بالبطل البوهيمي، ولكن تعاطفنا الحقيقي يتوجه لهؤلاء الذين بقوا وعلموا وبنوا. وقد تعلمت من هذه القصة أن التحليق البانورامي ليس

www.scantopdf.eu

دائمًا صفة إيجابية، وأنه يمكن أن يقنع المرء بالقليل وينجزه. ولذا حين عدت من الولايات المتحدة كان عندي ثلاث متتاليات: أن أكون ناقداً أدبيّا وأستاذًا جامعيّا وأبًا وزوجًا متميزًا، فإن أخفقت فلأكن أستاذًا جامعيّا وأبًا وزوجًا متميزًا، فإن أخفقت فلأكن أبًا وزوجًا متميزًا. وغني عن القول أن متتالية حياتي كانت مختلفة عن «خطتي» (فلم أصبح ناقداً أدبيّا ولم أستمر في التدريس في الجامعة، ولا أدري هل كنت أبًا وزوجًا متميزًا أم لا، ولأترك الحكم لأولادي وزوجتي). ولكن المهم أنني روضت الذئب الهيجلي، والنزعة النيتشوية الفاوستية: أن أجوب كل الآفاق وأن أجرب كل التجارب وأن أجاوز كل الحدود، وبدلاً من ذلك، قبلت الحدود الإنسانية واحتمالات الانتصار والانكسار.

وبرغم إدراكي لمخاطر الذئب الهيجلي، وبرغم نجاحي في ترويضه (ومن هنا نجحت في نشر بعض الكتب التي لا تحتوي على دراسات «شاملة كاملة ضخمة» . . . إلخ)، فإنه ظل رابضًا داخلي، فكنت كلما انتهيت من إحدى دراساتي عن الصهيونية، أعلن أن هذه آخر دراسة، أملاً في أن أبدأ دراستي النظرية الشاملة والتطبيقية في ذات الوقت. ومع هذا ظلت الصهيونية (كموضوع للدراسة) تلاحقني، وكلما انتهيت من كتابة دراسة ما عن الصهيونية كنت أجد نفسي مضطراً لكتابة الثانية ثم الثالثة وهكذا (كنت أشعر أحيانًا أن من يدفعني إلى ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وأن هذه هي مشيئته). وقد قررت عام ١٩٨٤ أن أذبح الذئب الهيجلي المعلوماتي تمامًا، فقبلت الاستمرار في الكتابة في حقل الصهيونية وحسب، أي أنني تخليت عن المشروع النظري التطبيقي الطموح. والطريف أنني حينما فعلت ذلك، تداخلت كل الأطروحات الأيديولوجية والفلسفية (وهي على كلٍّ كانت متداخلة منذ البداية) وتبلورت النماذج التحليلية، وبدأت أحاول الإجابة عن التساؤلات التي تطرح نفسها عليّ من خلال دراساتي في اليهودية واليهود والصهيونية التي تحولت تدريجيًا من الموضوع الأساسي للموسوعة إلى مجرد «دراسة حالة»، أي أنني أتصور أنني كتبت دراسة تتسم بقدر معقول من التجريد والشمول ومن التعيُّن والتخصيص، وأن الحلم الهيجلي (أو بعض جوانبه) قد تحقق دون أن ينهشني الذئب. ولهذا فمعظم كتبي القادمة - بإذن الله - ستكون عن موضوعات نظرية عامة مثل العلمانية الشاملة والحلولية وما بعد الحداثة، وتتعامل في الوقت ذاته مع نصوص وحالات معينة.

ومع هذا، لاشك في أن هناك بقايا «هيجلية» تتبدى في إعجابي الشديد بالفلسفة الألمانية ومقولاتها التحليلية. كما يتبدى في كثير من مقولاتي التحليلية مثل نهاية التاريخ

www.scantopdf.eu

والفـردوس الأرضي والثـالوث الحلولي واهتـمـامي بالبـعـد المعـرفي (الكـلي والنهـائي) للظواهر. واهتمامي بالصهيونية لم يكن قط سياسيّا بل أتناولها من خلال مقولات مثل: إشكالية الإنسان وعلاقته بالطبيعة والتاريخ - الغنوصية - الواحدية المادية - الأسطورة المنفصلة عن التاريخ - الداروينيـة - العلم المنفصل عن القيمة والغـاية . . . إلخ. ولكن هذه المقولات التحليلية الكبرى ليست مجرد مقولات نظرية ساكنة عامة، وإنما لها تجلياتها المتعينة في تفاصيل التاريخ والواقع الكثيرة. ومن هنا قولي إنها مجرد «بقايا هيجلية» لأنني أرفض الواحدية الهيجيلية، أرفض كلاّمن المثالية الخالصة والمادية الخالصة، فكلاهما بمفرده واحدي اختزالي، ولكن حينما يتقاطعان فإننا ندخل عالمًا مركبة أبعاده، عالم الإنسان والأسرار.

www.scantopdf.eu